كتاب التوبة وذكر شروطها وأركانها وما يتعلق بذلك

اعلم : أن الذنوب حجاب عن المحبوب ، والانصراف عما يبعد عن المحبوب واجب .

وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم ، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب ، لم يندم على الذنوب ، ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد ، وإذا لم يتوجع لم يرجع .

وقد أمر الله تعالى بالتوبة فقال : ﴿ وَتُوبُوا إِلَىٰ اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ ﴾[النور : ٣١] وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَىٰ اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾ الآية [التحريم : ٨] . وقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[البقرة : ٢٢٢] .

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « يا أيها الناس توبوا الى ربكم ، فإني أتوب الى الله في اليوم مائة مرّة » .

وفي « الصحيحين » من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دَوِّية[1] مهلكة ، معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فنام فاستيقظ وقد ذهبت ، فطلبها حتى أدركه العطش ، ثم قال : أرجع الى مكاني الذي كنت فيه ، فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ وعنده راحلته ، عليها زاده وطعامه وشرابه ، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » .

والأحاديث في هذا كثيرة ، والإجماع منعقد على وجوب التوبة ، لأن الذنوب مهلكات مبعدات عن الله تعالى ، فيجب الهرب منها على الفور .

والتوبة واجبة على الدوام ، فإن الإنسان لا يخلو عن معصية ، لو خلا عن معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه ، وإن خلا عن ذلك ، لم يخل عن وسواس

---

(١) الدو والدوي والدوية : الفلاة المستوية الواسعة البعيدة الأطراف ، وربما قالوا : داوية .

الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى ، لو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله ، وكل ذلك نقص ، ولا يسلم أحد من هذا النقص ، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير ، وأما أصل ذلك ، فلا بد منه .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه واله وسلم : « إنه ليغان على قلبي ،فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة » . ولذلك أكرمه الله تعالى بقوله :﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ من ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[الفتح : ٢] فأما غيره فكيف يكون حاله ؟ ومتى اجتمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة ، قال الله تعالى :﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾[الشورى : ٢٥] .

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » . والأحاديث في ذلك كثيرة .

فصل في بيان أقسام الذنوب

اعلم : أن للانسان أخلاقاً وأوصافاً كثيرة ، لكن تنحصر مثارات الذنوب في أربع صفات :

أحدها : صفات ربوبية ، ومنها يحدث الكبر والفخر ، وحب المدح والثناء ، والعز وطلب الاستعلاء ، ونحو ذلك ، وهذه ذنوب مهلكات ، وبعض الناس يغفل عنها ، فلا يعدها ذنوباً .

الثانية : صفات شيطانية ، ومنها يتشعب الحسد ، والبغي والحيل والخداع والمكر ، والغش والنفاق والأمر بالفساد ونحو ذلك .

الثالثة : الصفات البهيمية ، ومنها يتشعب الشر والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، فيتشعب من ذلك الزنى واللواطة والسرقة ، وأخذ الحطام لأجل الشهوات .

الرابعة : الصفات السبعية ، ومنها يتشعب الغضب والحقد ، والتهجم على الناس بالقتل والضرب ، وأخذ الأموال ، وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة .

فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولاً ، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً ، فاذا اجتمعت هاتان ، استعملتا العقل في الصفات الشيطانية ، من المكر والخداع والحيل ، ثم تغلب الصفات الربوبية .

فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ، ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع الى الجوارح ، فبعضها في القلب ، كالفكر ، والبدعة ، والنفاق ، وإضمار السوء ، وبعضها في العين ، وبعضها في السمع ، وبعضها في اللسان ، وبعضها في البطن والفرج ، وبعضها في اليدين والرجلين ، وبعضها على جميع البدن ، ولا حاجة الى تفاصيل ذلك ، فانه واضح . ثم الذنوب تنقسم الى ما يتعلق بحقوق الآدميين ، والى ما بين العبد وبين ربه .

فما يتعلق بحقوق العباد ، فالأمر فيه أغلظ ، والذي بين العبد وبين ربه ، فالعفو فيه أرجى وأقرب ، إلا أن يكون شركاً والعياذ بالله ، فذلك الذي لا يغفر .

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة : ديوان لا يعبأ الله به ، وديوان لا يترك الله منه شيئاً ، وديوان لا يغفره الله . فأما الديوان الذي لا يغفره الله تعالى ، فالشرك . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾[المائدة : ٧٢] . وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً ، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله عز وجل ، يغفر ذلك ، ويتجاوزون إن شاء . وأما الديوان الذي لا يترك منه شيئاً ، فظلم العباد بعضهم بعض ، فالقصاص لا محالة » .

قسمة أخرى :

اعلم : أن الذنوب تنقسم الى صغائر وكبائر ، وقد كثر الاختلاف فيها ، واختلفت الأحاديث في عدد الكبائر .

والأحاديث الصحاح في ذكرها خمسة .

الأول : حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله : وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » .

الثاني : حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، سئل أي الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قال : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قال : ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك » .

الثالث : حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الكبائر : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين » .

الرابع : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : قول الزور ـ أو قال ـ شهادة الزور » .

الخامس : حديث أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكرت عنده الكبائر قال : « الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس ، فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت .

وقد اختلفت العلماء فيها على أقوال كثيرة ، والأحاديث في الكبائر لا تدل على حصرها فيها ، ولعل الشارع قصد الإبهام ليكون الناس على وجل من الذنوب ، لكن يعرف من الأحاديث أجناس الكبائر ، ويعرف أيضاً أكبر الكبائر .

فأما أصغر الصغائر ، فلا سبيل الى معرفته ، وقد تكلم العلماء في عدد الكبائر ، فروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : هي أربع :

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : هي سبع .

وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا بلغه قول ابن عمر : إنها سبع ، قال : هي الى سبعين أقرب منها الى سبع .

وقال أبو صالح عن ابن عباس : هي ما أوجب الحد في الدنيا .

وعن ابن مسعود أن الكبائر من فاتحة النساء الى قوله : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ [النساء : ٣١] .

وقال سعيد بن جبير وغيره : هي كل ذنب أوعد الله عليه النار .

وقال أبو طالب المكي : الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار . أربعة في القلب : الشرك ، والإصرار على المعصية ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن من مكر الله تعالى .

وأربعة في اللسان : شهادة الزور ، وقذف المحصنات ، واليمين الغموس ، والسحر .

وثلاثة في البطن : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، وأكل الربا .

واثنتان في الفرج : الزنا واللواطة .

واثنتان في اليدين : القتل والسرقة .

وواحدة في الرجلين : الفرار من الزحف .

واحدة في جميع البدن ، وهي عقوق الوالدين .

وهذا يمكن أن يزاد عليه ، وينقص منه ، فإن ضرب اليتيم وتعذيبه أكبر من أكل ماله ، والله أعلم .

فصل في كيفية توزع الدرجات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا

اعلم : أن الناس يتفاوتون في الآخرة ، كما يتفاوتون في الدنيا ، وينقسمون الى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين ، وفائزين .

ومثال ذلك أن يستولي ملك من الملوك على إقليم ، فيقتل بعض أهله ، ويعذب بعضهم ولا يقتلهم ، ويخلي بعضهم ، فهم الناجون ، ويخلع على بعضهم وهم الفائزون .

وإذا كان الملك عادلاً ، فلا يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، ولا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك ، معانداً له في أصل الولاية ، ولا يعذب إلا من قصَّر في خدمته مع الاعتراف له بالملك ، ولا يخلي إلا معترفاً له بالملك ، ولم يقصر ، ولا يخلع إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة ، وكل واحد من هذه الأقسام يتفاوتون في النعيم والتعذيب على حسب أحوالهم ، ويشهد لذلك ما ورد في الحديث أن من الناس من يمر على الصراط كالبرق الخاطف ، ومنهم من يبقى في النار سبعة آلاف سنة ، وبين اللحظة وسبعة آلاف سنة تفاوت كثير .

وأما اختلاف العذاب بالشدة ، فلا نهاية لأعلاه ، وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في

الحساب ، ثم يعفو ، وقد يضرب بالسياط أو يعذب بغيرها من أنواع العذاب .

وتفاوت منازل أهل السعادة على نحو ذلك في النعيم ، فهذه الأمور الكلية معلومة بالنقل ونور المعرفة .

فأما من جهة التفصيل ، فنقول : كل من أحكم أصل الايمان ، واجتنب جميع الكبائر ، وأحسن جميع الفرائض ، ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لا يصر عليها ، فيشبه أن يعفى عنه ، فقد نص القرآن على أن اجتناب الكبائر مكفر للصغائر .

وهذا إما أن يلتحق بالمقربين ، أو بأصحاب اليمين ، وذلك بحسب إيمانه ويقينه ، فان قل أو ضعف ، دنت منزلته ، وإن كثر وقوي ، علت منزلته .

ثم إن المقربين يتفاوتون بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ، ودرجات العارفين في المعرفة لا تنحصر ، لأن بحر المعرفة لا ساحل له ، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم ، فأعلى درجات أصحاب اليمين ، أدنى درجات المقربين ، هذا حال من اجتنب الكبائر وأدى الفرائض .

فأما من ارتكب كبيرة ، أو أهمل أركان الإسلام ، فانه إن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الأجل ، التحق بمن لم يرتكب ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والثوب المغسول كالذي لم يتسخ أصلاً .

فأما إن مات قبل التوبة ، فأمره خطر ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه ، فيختم له بسوء الخاتمة ، لا سيما إذا كان إيمانه تقليداً فانه قابل للانحلال بأدنى شك وخيال ، والعارف الموقن أبعد من أن يخاف عليه سوء الخاتمة . ثم إن عذاب الميت عن غير توبة يكون بحسب قبح الكبائر ومدة الإصرار . ثم ينزل البله المقلدون الجنة ، وينزل العارفون المستبصرون أعلى عليين ، وما ذكرناه من مراتب العباد في المعاد حكم ظاهر الأسباب ، يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ، ولا يقبل إصلاح العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف ، وعلاجه هيِّن ، فإن ذلك ظن يصيب غالباً ، وقد تثوب الى الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب ، وقد يساق الى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه ، وذلك لأسرار الله تعالى الخفية ، وفي أرواح الأحياء غموض للأسباب التي رتبها المسبب ، وليس في قوة البشر الوقوف على كنهها ، وكذلك الفوز والهلاك في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة

البشر الاطلاع عليها ، وكذلك يجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته ، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة ، فان الاعتماد على التقوى ، والتقوى في القلب ، وأحوال القلب قد تخفى على صاحبه ، فكيف على غيره ؟

وأما الناجون ، ونعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز ، وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ، ولم يقصروا فيعذبوا ، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين ، وأولاد الكفار ، والذين لم تبلغهم الدعوة ، فلم يكن لهم معرفة ، ولا جحود ، ولا طاعة ، ولا معصية ، ويصلح أن يكونوا على الأعراف .

وأما الفائزون ، فهم العارفون ، وهم المقربون والسابقون ، وهؤلاء الذين لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرَّة أعين ، وليس حرصهم على الجنة ، بل على لقاء الله سبحانه وتعالى والنظر اليه .

ومثالهم مثال المحب ، فانه في تلك الحال غافل عن نفسه ، لا يحس بما يصيبه في بدنه ، ولا همَّ له سوى محبوبه ، فهؤلاء الواصلون الى قرَّة أعين ، ولا تخطر على قلب بشر ، فهذا القدر كاف في بيان توزيع الدرجات على الحسنات .

فصل في بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم : أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة .

وفي الحديث من رواية ابن عباس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع الاستغفار »[1] .

واعلم : أن العفو عن كبيرة قد انقضت ولم يتبعها مثلها ، أرجى من العفو عن صغيرة يواظب عليها العبد .

ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على حجر متواليات ، فإنها تؤثر فيه ، ولو جمعت تلك القطرات في مرة وصبت عليه لم تؤثر ، ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أحب العمل الى الله أدومه وإن قل » .

---

(١) رواه أبو الشيخ ومن طريقه الديلمي في « مسند الفردوس » من حديث سعيد بن سليمان سعدويه ، عن أبي شيبة الخراساني ، عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس . . وأبو شيبة الخراساني قال البخاري : لا يتابع على حديثه ، وقال الذهبي في « الميزان » : أتى بخبر منكر رواه عنه سعدويه ، فذكره وقد ذكره ابن المنذر في تفسيره من قول ابن عباس .

ومن الأسباب التي تعظم بها الصغائر أن يستصغر الذنب ، فان الذنب كلما استعظمه العبد ، صغر عند الله تعالى ، وكلما استصغره العبد ، كبر عند الله تعالى ، فإن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهيته له .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، فقال به هكذا . أخرجاه في « الصحيحين » .

وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله تعالى ، فاذا نظر الى عظمة من عصى ، رأى الصغيرة كبيرة .

وفي البخاري من حديث أنس رضي الله عنه : « إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الموبقات »

وقال بلال بن سعد رحمه الله : لا تنظر الى صغر الخطيئة ، ولكن انظر الى عظمة من عصيت .

ومن الأسباب أن يفرح بالصغيرة ويتمدح بها ، كما يقول : أما رأيتني كيف مزَّقت عرض فلان ، وذكرت مساويه حتى خجلته ، أو يقول التاجر : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف ، وكيف خدعته وغبنته ، فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر .

ومنها ان يتهاون بستر الله تعالى وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدري أن ذلك قد يكون مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً .

ومنها أن يأتي بالذنب ثم يذكره بمحضر من غيره ، وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « كل أمتي معافىً إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل العمل بالليل ، ثم يصبح وقد ستره الله عليه ، فيقول : يا فلان : عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره الله عليه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه » .

ومنها أن يكون المذنب عالماً يُقتدى به ، فاذا علم منه الذنب ، كبر ذنبه ، كلبسه الحرير ، ودخوله على الظلمة مع ترك الإنكار عليهم ، وإطلاق اللسان في الأعراض ، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه ، كعلم الجدل ، فهذه ذنوب يتبع العالم

عليها ، فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم ، فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه .

وفي الحديث : « ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » .

فعلى العالم وظيفتان :

إحداهما : ترك الذنب ، والثانية : إخفاؤه إذا أتاه .

وكما تتضاعف أوزار العلماء إذا أُتبعوا على الذنوب ، كذلك تتضاعف حسناتهم إذا أُتبعوا على الخير .

وينبغي للعالم أن يتوسط في ملبسه ونفقته ، وليكن الى التقلل أميل ، فإن الناس ينظرون إليه .

وينبغي له الاحتراز مما يقتدى به فيه ، فإنه متى ترخص في الدخول على السلاطين وجمع الحطام ، فاقتدى به غيره ، كان الاثم عليه ، وربما سلم هو في دخوله ، ولم يفهموا كيفية سلامته .

وقد روينا أن ملكاً كان يُكْرِهُ الناس على أكل لحم الخنزير ، فجيء برجل عالم ، فقال له حاجب الملك : قد ذبحت لك جدياً فكل منه ، فلما دخل قرب إليه فلم يأكل ، فأمر بقتله ، فقال له الحاجب : ألم أقل لك إنه جدي ، فقال : ومن أين يعلم حالي من يقتدي بي .

فصل في شروط التوبة

واعلم : أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً ، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصي حائلاً بين الإنسان وبين محبوبه .

والندم هو توجع القلب عنده شعوره بفراق المحبوب ، وعلامته طول الحزن والبكاء ، فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعزُّ عليه ، طال بكاؤه ، واشتدت مصيبته ، وأيُّ عزيز أعزّ عليه من نفسه ؟ وأي عقوبة أشد من النار ؟ وأي سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي ؟ وأي مخبر أصدق من رسول الله ؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه لاشتد في الحال حزنه ، وليس ولده بأعز من نفسه ، ولا الطبيب أعلم من

الله ورسوله ، ولا الموت بأشد من النار ، ولا المرض أدل على الموت من المعاصي على سخط الله ، والتعرض بها للنار .

وينبغي للتائب أن يتفقد ما عليه من صلاة فائتة ، أو بغير شرطها ؟ مثل أن يكون صلاها في ثوب نجس ، أو بنية غير صحيحة ، لجهله بذلك ، فيقضيها كلها .

وكذلك إن كان عليه صوم ، أو زكاة ، أو حج ، أو غير ذلك من الواجبات ، يقضيها كلها ، ويفتش على ذلك ويتداركه .

وأما المعاصي ، فينبغي أن يفتش من أول بلوغه عن معصية صدرت منه ، وينظر فيها ، فما كان من ذلك فيما بينه وبين الله تعالى ، فالتوبة منه الندم والاستغفار .

ثم ينظر الى مقادير ذنوبه ، فيطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها ، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ١١٤] ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «أتبع السيئة الحسنة تمحها» .

مثال ما ذكرنا : أن يكفر سماع الملاهي بسماع القرآن ومجالس الذكر ، ويكفر مس المصحف بغير طهارة بإكرامه وكثرة القراءة فيه ، وإن أمكنه أن يكتب مصحفاً ويقفه فليفعل ، ويكفِّر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال . وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة ، فإن الأمراض إنما تعالج بضدها ، فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى .

وأما مظالم العباد ، ففيها أيضاً معصية الله تعالى ، لأنه نهي عن ظلم العباد ، فالظالم لهم قد ارتكب نهيه تعالى ، فيتدارك ذلك بالندم والعزم على ترك مثل ذلك في المستقبل ، والاتيان بالحسنات المضادة لتلك المظالم كما تقدم في القسم الأول ، فيقابل إيذاء الناس بالاحسان إليهم ، ويكفِّر غصب الأموال بالتصدق بماله الحلال ، ويكفِّر تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين ، ويكفِّر قتل النفوس بالعتق .

هذا فيما يتعلق بحق الله تعالى ، فإذا فعل ذلك ، لم يكفه حتى يخرج من مظالم العباد .

ومظالمهم إما في النفوس ، أو الأموال ، أو الأعراض ، أو إيذاء القلوب .

أما الأول : فإنه إذا قتل خطأ أو أوصل الدية الى مستحقها ، إما منه أو من عاقلته ، وإن قتل عمداً ، وجب عليه القصاص بشروطه ، فعليه أن يبذل نفسه لولي الدم ، إن

شاء قتله ، وإن شاء عفا عنه ، ولا يجوز له إخفاء أمره ، بخلاف مالو زنا ، أوسرق ، أو شرب الخمر ، أو باشر ما يجب فيه حد الله تعالى ، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ، بل عليه أن يستر نفسه ، فإن رفع أمره الى الولي حتى أقام عليه الحد ، وقع ذلك موقعه وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى ، بدليل قصة ماعز والغامدية .

وكذلك حد القذف ، لا بد فيه من تحكيم المستحق فيه .

الثاني : المظالم المتعلقة بالأموال ، نحو الغصب ، والخيانة ، والتلبيس في المعاملات ، فيجب عليه رد ذلك الى أصحابه والخروج منه .

وليكتب الى أصحاب المظالم ،وليؤدِّ إليهم حقوقهم ، ويستحلهم ، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه ، فليفعل ما يقدر عليه من ذلك ، ولم يبق له طريق إلا الاستكثار من الحسنات ، لتؤخذ منه في القصاص يوم القيامة فتوضع في موازين أرباب المظالم ، فانها إن لم تف بذلك أخذ من سيئاتهم ، فتوضع فوق سيآته .

هذا حكم المظالم الثابتة في الذمة والأموال الحاضرة ، فان كان عنده مال من شيء من ذلك لم يعرف مالكه ولا ورثته ، تصدق به عنه ، وإن اختلط الحلال بالحرام ، عرف قدر الحرام بالاجتهاد ، وتصدق بمقداره .

الثالث : الجناية على الأعراض ، وإيذاء القلوب ، فعليه أن يطلب كل واحد منهم ، وليستحله ، وليعرفه قدر الجناية ، فإن الاستحلال المبهم لا يكفي ، وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال ، إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى ، كنسبته الى عيب من خفايا عيوبه ، أو كزنىً بجاريته ، فليجتهد في اللطف به والإحسان إليه ، ثم ليستحله مبهماً ، ولا بد أن يبقى في مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيامة ، وكذلك من مات من هؤلاء فانه يفوت أمره ، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات ، لتؤخذ منه عوضاً يوم القيامة ، ولا خلاص إلا برجحان الحسنات .

فصل [في شروط التوبة]

ومن شروط التوبة الصحيحة العزم على أن لا يعود في المستقبل الى تلك الذنوب ، ولا الى أمثالها ، ويعزم على ذلك عزماً مؤكداً .

مثال ذلك المريض الذي يعلم أن الفاكهة تضر في مرضه ، فيعزم عزماً جزماً أن لا يتناول شيئاً من الفاكهة ما دام في مرضه ذلك ، فان هذا العزم يتأكد في الحال ، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال ، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال ، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة ، والصمت ، وقلة الأكل والنوم ، واحراز قوتٍ حلالٍ ، ويترك الشبهات والشهوات من المأكولات والملبوسات .

قال بعضهم : من صدق في ترك الشهوة ، وجاهد نفسه فيها سبع مرات ، لم يبتل بها ، وقال : من تاب من ذنب واستقام سبع سنين ، لم يعد إليه أبداً .

بيان أقسام العباد في دوام التوبة

الناس في التوبة أربع طبقات :

الطبقة الأولى : تائب يستقيم على التوبة الى آخر عمره ، ويتدارك ما فرَّط من أمره ، ولا يحدِّث نفسه بالعود الى ذنوبه ، الا الزلات التي لا ينفك عنها البشر في العادات ، فهذه هي الاستقامة في التوبة . وصاحبها هو السابق بالخيرات .

وتسمى هذه التوبة : النصوح ، وتسمى هذه النفس : المطمئنة ! وهؤلاء يختلفون ، منهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ، ومنهم من تنازعه نفسه وهو مليء بمجاهدتها .

الطبقة الثانية : تائب قد سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش ، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه ، لا عن عمد ، ولكنه يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها ، وكلما أتى شيئاً منها لام نفسه ، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها ، فهذه هي النفس اللوَّامة لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة ، فهذه رتبة عالية أيضاً ، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهي أغلب أحوال التائبين ، لأن الشر معجون بطينة الآدمي ، فقلما ينفك عنه ، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره ، حتى يثقل ميزانه ، فترجح حسناته ، فأما أن تخلو كفة السيئات ، فبعيد .

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه ، إذ قال : ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ﴾[النجم : ٣٢] والى هذه الرتبة الاشارة

بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « ان الله يحب المؤمن المُفتَّنَ التواب »[1] .

الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب ، فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها ، وإنما قهرته شهوة واحدة أو شهوتان ، وهو يود لو أقدره الله على قمعها ، وكفاه شرها ، فاذا انتهت ندم ، لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب ، فهذه النفس تسمى المسؤولة ، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِم خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً ﴾فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجو لقوله تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِم ﴾[التوبة : ١٠٣] وعاقبته مخطرة من حيث تأخيره وتسويفه ، فربما يختطف قبل التوبة ، فان الأعمال بالخواتيم ، فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة ، وكل نفس يمكن أن يتصل به الموت ، فتكون الخاتمة ، فليراقب الأنفاس ، وليحذر وقوع المحذور .

الطبقة الرابعة : أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة ، ثم يعود الى الذنوب منهمكاً من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله ، فهذا من المصرين ، وهذه النفس هي الأمارة بالسوء ، ويخاف على هذا سوء الخاتمة .

فإن مات هذا على التوحيد ، فإنه يرجى له الخلاص من النار ، ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا يطلع عليه ، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح ، فإن من قال : إن الله تعالى كريم ، وخزائنه واسعة ، ومعصيتي لا تضره ، ثم تراه يركب البحار في طلب الدينار . فلو قيل له : فإذا كان الحق كريماً ، فاجلس في بيتك لعله يرزقك ، استجهل قائل هذا وقال : إنما الأرزاق بالكسب ، فيقال له : هكذا النجاة بالتقوى .

فصل [فيما ينبغي للتائب فعله]

وقد ذكرنا أن التائب ينبغي له أن يأتي بحسنات تضاد ما عمل من السيئات ،

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في « زوائد المسند » رقم (٦٠٥) و (٨١٠) من حديث علي رضي الله عنه ، وفي سنده أبو عبد الله مسلمة الرازي لا يعرف وأبو عمرو البجلي ، واسمه عبيدة بن عبد الرحمن ، قال ابن حبان : لايحل الاحتجاج به يروي الموضوعات عن الثقات وعبد الملك بن سفيان الثقفي مجهول . والمفتن بفتح التاء المشددة ، أي : الممتحن بالذنب .

لتمحوها وتكفرها ، والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان والجوارح على حسب السيئات ، فما كان بالقلب ، فنحو التضرع والتذلل ، وأما اللسان ، الاعتراف بالظلم والاستغفار ، مثل أن يقول : رب ظلمت نفسي فاغفر لي .

روي في الحديث ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ما من رجل يذنب ذنباً ، فيتوضأ ويحسن الوضوء ، ثم يصلي ركعتين ، ويستغفر الله عزَّ وجل ، إلا غفر له » .

وأما الجوارح فبالطاعات ، والصدقات ، وأنواع العبادات .

فصل في دواء التوبة وطريق علاج حل عقد الإصرار

اعلم : أنه لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء ، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء ، ولا يبطل الشيء إلا بضده ، وسبب الإصرار الغفلة والشهوة ، ولا تضاد الغفلة إلا بالعلم ، ولا تضاد الشهوة إلا بالصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة .

والغفلة رأس الخطايا ، فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر ، كما يجمع في السكنجبين حلاوة السكر وحموضة الخل ، فيحصل بمجموعهما قمع الصفراء .

والأطباء لهذا المرض هم العلماء ، لأنه مرض القلوب ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان ، وإنما صار مرضها أكثر لأمور :

أحدها : أن المريض لا يدري أنه مريض .

الثاني : أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم ، بخلاف مرض الأبدان ، فان عاقبته موت مشاهد ينفر الطبع عنه ، وما بعد الموت غير مشاهد ، فقلّت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب ، ويجتهد في علاج البدن من غير اتكال .

الأمر الثالث : وهو الداء العضال فقد الطبيب ، فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا في هذه الأعصار ، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا ، وقد غلب هذا الداء على

الأطباء ، فلم يقدروا على تحذير الخلق استنكافاً من أن يقال لهم : فما لكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ؟ فبهذا السبب عم الداء وانقطع الدواء .

فإن قيل : فما الذي ينبغي للواعظ سلوكه من الخلق ؟

فالجواب : أن ذلك يطول ، لكنا نشير الى الأعمال النافعة في ذلك ، وهي أربعة أنواع :

الأول : أن يذكر ما في القرآن العزيز من الآيات المخوفة للمذنبين ، وما ورد في الأخبار والآثار من ذلك ، ويمزج ذلك بمدح التائبين .

النوع الثاني : حكايات الأنبياء عليهم السلام ، والسلف الصالح ، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب ، كحال آدم عليه السلام ، وما لقي في عصيانه من الإخراج من الجنة ، وما جرى لداود وسليمان ويوسف عليهم السلام ، ولم يورد القرآن هذه الأشياء إلا للاعتبار .

وكان من سعادتهم معالجتهم بذلك ، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً ، ولأن عذاب الآخرة أشد ، فينبغي أن يكثر من هذا على أسماع المصرين ، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة .

النوع الثالث : أن يقرر عندهم ، أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع ، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب ، فهو سبب جناياته ، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة يخاف عقوبة الدنيا أكثر لفرط جهله . والذنوب قد يتعجل في الدنيا شؤمها ، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه »[1] .

وقال الفضيل بن عياض : إني لأعصي الله ، فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي .

وقال أبو سليمان الداراني : الاحتلام عقوبة ، ولا يفوت أحداً صلاة إلا بذنب يذنبه .

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٧٧ و ٢٨٠ و ٢٨٢ ، وابن حبان (١٠٩٠) والحاكم ١/ ٤٩٣ ، وابن ماجة (٤٠٢٢) والطحاوي في « مشكل الآثار » ٤/ ١٦٩ من حديث ثوبان رضي الله عنه وتمامه : « ولا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر وفي سنده جهالة أو انقطاع ، لكن لقوله : « ولا يرد القدر إلا الدعاء . . . » شاهد يحسن به .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن المؤمن إذا أذنب كان نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر ، صقل قلبه ، وذلك الران الذي ذكر الله عز وجل في كتابه : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » [المطففين : ١٤] . قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وقال الحسن رحمه الله : الحسنة نور في القلب ، وقوة في البدن ، والسيئة ظلمة في القلب ، ووهن في البدن .

النوع الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات في آحاد الذنوب ، كشرب الخمر ، والزنى ، والقتل ، والكبر ، والحسد ، والغيبة .

وينبغي أن يكون طبيباً يعلم الداء ، ويدري كيف يصنع الدواء ، فإن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : أوصني ، قال : « لا تغضب » .

وقال آخر : أوصني ، فقال : « عليك باليأس مما في أيدي الناس » .
فكأنه تخايل في الأول مخايل الغضب ، وفي الثاني مخايل الطمع .

وهذا الذي ذكرنا هو علاج الغفلة ، فيبقى علاج الشهوة ، وطريق علاجها يؤخذ مما ذكرنا في كتاب « رياضة النفس » ولا بد من الصبر ، فان المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره ، وإنما يحمله على ذلك شدة شهوته ، أو غفلته عن مضرته ، فلا بد من مرارة الصبر ، وكذلك يعالج الشهوة في المعاصي ، كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة ، فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه في السعي وراء الشهوة ، فينبغي أن يستحضر المخوفات التي جاءت في كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فاذا اشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة للشهوة .

والذي يهيج الشهوة من خارج ، هو حضور المشتهى ، والنظر اليه ، وعلاجه : الجوع والصوم الدائم ، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ، ولا يصبر إلا عن خوف ، ولا يخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة ، فأول الأمر حضور مجالس الذكر ، والاستماع بقلب مجرد عن الشواغل ، ثم التفكر فيما قيل ، فينبعث الخوف ، ويسهل الصبر ، وتتيسر الدواعي لطلب العلاج ، وتوفيق الحق سبحانه من وراء ذلك كله .

فان قيل : ما بال الانسان يقع في الذنب مع علمه بقبح عواقبه ؟
فعن ذلك أجوبة . منها : أن العقاب الموعود ليس بحاضر .

ومنها : أن المؤمن إذا أذنب لا بد أن يعزم على التوبة ، وقد وعد أن التوبة تجبر ما فعل ، وطول الأمل غالب على الطباع ، فلا يزال يسوف بالتوبة ، فلما رجا التوبة أقبل على الذنب .

ومنها : أنه يرجو عفو الله عنه ، وعلاج هذه الأسباب أن يفكر في نفسه أن كل ما هو آتٍ قريب ، وأنه لا يأمن هجوم الموت ، ويعالج التسويف بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف ، والمسوف يبني الأمر على ما ليس إليه ، وهو البقاء ، فلعله لا يبقى ، وإن بقي فربما لم يقدر على الترك غداً كما يقدر عليه اليوم ، وهل عجز عن الحال إلا لغلبة الشهوة وهي غير مفارقة له غداً ؟ بل يتأكد بالاعتياد ، ومن هذا هلك المسوفون ، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ، وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج الى قلع شجرة ، فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة ، فقال : أؤخرها سنة ثم أعود اليها ، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه ، فالعجب من عجزه مع قوته عن مقاومتها في حال ضعفها ، كيف ينتظر الغلبة اذا ضعف وقويت .

وأما انتظار عفو الله تعالى ، فعفو الله سبحانه ممكن ، الا أن الانسان ينبغي له الأخذ بالحزم ، وما مثال ذلك الا كمثل رجل أنفق أمواله كلها ، وترك نفسه وعياله فقراء ينتظر من الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في خربة ، وهذا ممكن إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

كتاب الصبر[1] والشكر

وهو شطران :

الأول، فضل الصبر وحقيقته وأقسامه ونحو ذلك . وقد ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعاً ، وأضاف اليه أكثر الخيرات والدرجات وجعلها ثمرة له ، فقال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة :٢٤] . وقال : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[الأعراف : ١٣٧] . وقال : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل : ٩٦] وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر : ١٠] .

فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ، ولاجل كون الصوم من الصبر قال الله تعالى[2] : « الصوم لي وأنا أجزي به » . وقد وعد الله الصابرين بأنه معهم ، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال : ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة : ١٥٧] والآيات في هذا كثيرة .

وأما الأحاديث ، ففي « الصحيحين » من حديث أبي سعيد رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « ما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر » وفي حديث آخر : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد »[3] .

وقال الحسن : الصبر كنز من كنوز الخير ، لا يعطيه الله عزَّ وجل إلا لعبد كريم عنده . وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة فيطالعها ، وفيها : ﴿واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[الطور : ٤٨] .

واعلم : أن الصبر من خاصية الانسان ، ولا يتصور في البهائم لنقصانها ، وغلبة الشهوات عليها من غير شيء يقابلها ، ولا يتصور الصبر أيضاً في الملائكة لكمالها ، فإن الملائكة جرِّدوا للشوق الى حضرة الربوبية ، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة عنها حتى يحتاج الى مصادمة ما يصدها عن حضرة الجلال .

---

(١) انظر من منشورات دار البيان بدمشق كتاب « تسلية أهل المصائب » للمنبجي الحنبلي .

(٢) أي في الحديث القدسي .

(٣) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث علي مرفوعاً وهو ضعيف جداً ، وروي عنه موقوفاً بسند ضعيف أيضاً .

وأما الانسان فإنه يخلق في ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة ، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح ، وليس له قوة الصبر ، فإذا تحرك العقل وقوي ، ظهرت مبادىء إشراق نور الهداية عند سن التمييز ، وينمو على التدرج الى سن البلوغ ، كما يبدو نور الصبح الى أن يطلع قرص الشمس ، ولكنها هداية قاصرة لا مرشد لها الى مصالح الآخرة ، فإذا عقد بمعرفة الشرع تلمح ما يتعلق بالآخرة وكثر سلاحه ، إلا أن الطبع يقتضي ما يحب ، وباعث الشرع والعقل يمنع ، والحرب بينهما قائمة ، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوات ، فإن ثبت حتى قهر الشهوة التحقق بالصابرين ، وإن ضعف حتى غلبت الشهوة ولم يصبر على دفعها ، التحق بأتباع الشياطين ، وإذا ثبت أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة الهوى ، فهذه المقاومة من خاصة الآدميين .

فصل [في اقسام الصبر]

اعلم أن الصبر على ضربين :

أحدهما : بدني ، كتحمل المشاق بالبدن ، وكتعاطي الأعمال الشاقة من العبادات أو من غيرها .

الضرب الآخر : هو الصبر النفساني عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ، وهذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج ، سمي عفة ، وإن كان الصبر في قتال ، سمي شجاعة ، وإن كان في كظم غيظ ، سمي حلماً ، وإن كان في نائبة مضجرة ، سمي سعة صدر ، وإن كان في إخفاء أمر ، سمي كتمان سر ، وإن كان في فضول عيش ، سمي زهداً ، وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ ، سمي قناعة .

وأما المصيبة ، فإنه يقتصر فيها على اسم الصبر ، فقد بان بما ذكرنا أن أكثر أخلاق الإيمان داخلة في الصبر ، وإن اختلفت الأسماء باختلاف المتعلقات .

ثم اعلم ان العبد لا يستغني عن الصبر في كل حال من الأحوال ، وذلك أن جميع ما يلقى العبد في الدنيا لا يخلو من نوعين :

النوع الأول :

ما يوافق هواه من الصحة ، والسلامة والمال ، والجاه ، وكثرة العشيرة ،

والأتباع ، وجميع ملاذ الدنيا ، فالعبد محتاج الى الصبر في جميع هذه الأمور ، فلا يركن اليها ، ولا ينهمك في التلذذ بها ، ويراعي حق الله تعالى في ماله بالإنفاق ، وفي بدنه بالمعونة للحق .

ومتى لم يضبط نفسه عن الانهماك في الملاذ والركون إليها ، أخرجه ذلك الى البطر والطغيان ، حتى قال بعض العارفين : المؤمن يصبر على البلاء ، ولا يصبر على العافية إلا صدِّيق .

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر .

ولذلك قال الله تعالى : ﴿لاَ تُلْهِكُم أَمْوَالُكُم وَلاَ أَوْلاَدُكُم عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون : ٩] وقال تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَمَا أَمْوَالُكُم وَأَوْلاَدُكُم فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال : ٢٨]﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُم عَدُوًّا لَكُم فَاحْذَرُوهُم﴾ [التغابن : ١٤] .

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ، وهذا الصبر متصل بالشكر ، فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر ، وإنما كان الصبر على السراء شديداً ، لأنه مقرون بالقدرة ، والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه عند حضور الطعام اللذيذ .

النوع الثاني المخالف للهوى وهو ثلاثة أقسام :

أحدها : الطاعات ، فيحتاج العبد الى الصبر عليها ، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية .

ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ، ومنها ما يكره بسبب البخل ، كالزكاة ، ومنها ما يكره بسببهما جميعاً ، كالحج والجهاد .

ويحتاج المريد الى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال :

حال قبل العبادة ، وهي تصحيح النية ، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء .

وحال في نفس العبادة ، وهي أن لا يغفل عن الله تعالى في أثناء العبادة ، ولا يتكاسل عن تحقيق الأداب والسنن ، فيلازم الصبر عن دواعي الفتور الى الفراغ من العمل .

الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل : وهي الصبر عن إفشائه ، والتظاهر به لأجل الرياء والسمعة ، وعن كل ما يبطل عمله ، فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى أبطلها .

القسم الثاني : الصبر عن المعاصي ، وما أحوج العبد الى ذلك .

ثم إن كان الفعل مما تيسر فعله ، كمعاصي اللسان من الغيبة ، والكذب والمراء ونحوه ، كان الصبر عليه أثقل . فترى الإنسان إذا لبس حريراً ، استنكر ذلك ، ويغتاب أكثر نهاره ، فلا يستنكر ذلك ، ومن لم يملك لسانه في المحاورات ، ولم يقدر على الصبر ، لم ينجه إلا العزلة .

القسم الثالث : مالا يدخل تحت الاختبار ، كالمصائب ، مثل موت الأحبة ، وهلاك الأموال ، وعمى العين ، وزوال الصحة ، وسائر أنواع البلاء ، فالصبر على ذلك من أعلى المقامات ، لأن سنده اليقين .

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من يرد الله به خيراً يصب به » .

وقريب من هذا القسم ، الصبر على أذى الناس ، كالذي يؤذي بقول أو فعل أو جناية على نفسه أو ماله ، والصبر على ذلك يكون بترك المكافآت .

والصبر على أذى الناس من أعلى المراتب ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾[آل عمران : ١٨٦] . وقال :﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر : ٩٧] وقال :﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل ١٢٦] .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « الصبر ثلاثة : صبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها ، كتب الله له ثلاثمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الأخرى كما بين السماء والأرض ، ومن صبر على الطاعة كتبت له ستمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم الأرض الى منتهى العرش ، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمئة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم الأرض الى منتهى العرش مرتين »[1] .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « فضل الصبر » وأبو الشيخ في « الثواب » من حديث علي رضي الله عنه ، وسنده ضعيف .

والأحاديث في فضائل الصبر كثيرة ، منها : ما أخرجاه في « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله عز وجل بها عنه ، حتى الشوكة يشاكها » .

وفي حديث آخر : « ما يصيب المسلم من وصب ولا نصب ولا همٍّ ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياه » . أخرجاه في « الصحيحين » .

وفي حديث آخر : « لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة ، في جسده وفي ماله وفي ولده ، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة » .

وفي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أي الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة » قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وروينا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : قال الله تعالى : « إذا وجهت الى عبد من عبادي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ، ثم استقبل ذلك بصبر جميل ، استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً ، أو أنشر له ديواناً »[1] .

فصل [في آداب الصبر]

ومن آداب الصبر استعماله في أول صدمة ، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » حديث صحيح .

ومن الآداب الاسترجاع عند المصيبة ، لحديث أم سلمة رضي الله عنها وهو من رواية مسلم .

ومن الآداب سكون الجوارح واللسان ، فأما البكاء فجائز .

قال بعض الحكماء : الجزع لا يرد الفائت ، ولكن يسر الشامت .

---

(١) أخرجه ابن عدي في « الكامل » والديلمي في مسند الفردوس ، والحكيم الترمذي في النوادر من حديث أنس بن مالك ، هسنده ضعيف كما قال الحافظ العراقي .

ومن حسن الصبر أن لا يظهر أثر المصيبة على المصاب ، كما فعلت أم سُليم امرأة أبي طلحة لما مات ابنها ، وحديثها مشهور في « صحيح مسلم » .

وقال ثابت البناني : مات عبد الله بن مطرف ، فخرج مطرف على قومه في ثياب حسنة وقد ادهن ، فغضبوا ، وقالوا : يموت عبد الله ، ثم تخرج في ثياب من هذه مدهناً ؟! قال : أفأستكين لها ، وعدني ربي تبارك وتعالى ثلاث خصال ، كل خصلة منها أحب إليَّ من الدنيا وما فيها .

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦ و١٥٧] .

وقال مطرف : ما شيء أعطى به في الآخرة قدر كوز من ماء ، إلا وددت أنه أخذ مني في الدنيا .

وكان صلة بن أشيم في مغزىً له ومعه ابنه ، فقال : أي بني ! تقدم فقاتل حتى أحتسبك ، فحمل فقاتل حتى قتل ، ثم تقدم فقتل ، فاجتمع النساء عند أمه معاذة العدوية ، فقالت : مرحباً إن كنتن جئتن تهنئنني ، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن .

وإذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها ، فكتمانها من نعم الله عز وجل الخفية .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين ، فيقول : انظروا ما يقوله لعواده ، فان هو حمد الله تعالى إذا دخلوا عليه ، رفعا ذلك الى الله تعالى وهو أعلم . فيقول : لعبدي إن أنا توفيته أن أدخله الجنة ، وان أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه ، ودماً خيراً من دمه ، وأن أكفر عنه خطاياه »[1] .

وقال علي رضي الله عنه : من اجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ، ولا تذكر مصيبتك .

وقال الأحنف : لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة ، ما ذكرتها لأحد .

---

(١) أخرجه مالك في « الموطأ » ٢/ ٩٤٠ : باب ما جاء في أجر المريض من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . ورجاله ثقات إلا أنه مرسل ، ووصله ابن عبد البر من طريق عباد بن كثير عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري ، وعباد بن كثير ليس بالقوي .

وقال رجل للامام أحمد : كيف تجدك يا أبا عبد الله ؟ قال : بخير في عافية . فقال له : حممت البارحة ؟ قال : اذا قلت لك : أنا في عافية فحسبك ، لا تخرجني الى ما أكره .

وقال شقيق البلخي : من شكا مصيبة به الى غير الله ، لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبداً .

وقال بعض الحكماء : من كنوز البر كتمان المصائب ، وقد كانوا يفرحون بالمصائب نظراً الى ثوابها ، وحكاياتهم مشهورة في ذلك .

منها : ما روي أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لما مات دفنه عمر ، وسوى عليه ثم أستوى قائماً ، فأحاط به الناس ، فقال : رحمك الله يا بني ! قد كنت براً بأبيك ، والله ما زلت منذ وهبك الله لي مسروراً بك ، ولا والله ما كنت قط أشد بك سروراً ، ولا أرجى بحظي من الله تعالى فيك منذ وضعتك في هذا المنزل الذي صيَّرك الله إليه .

فان قيل : ان كان المراد من الصبر عدم كراهية المصائب ، فلا قدرة للآدمي على ذلك ، وان كان الفرح بوجودها كما حكيتم ، فهو أبعد .

والجواب : أن الصبر لا يكون الا عن محبوب أو على مكروه ، ولا ينهى عما لا يدخل تحت الكسب ، وهو انزعاج الباطن ، وانما ينهى عن المكتسب ، كشق الجيوب ، ولطم الخدود ، والقول باللسان ، فأما ما ذكرنا من فرح بعضهم ، فذلك فرح شرعي لا طبعي ، اذ الطبع لا بد له من كراهة المصائب .

ومثال هذا مثال رجل مريض له شربة لمرضه ، فسعى في طلب حوائجها ، وأنفق عليها مالاً ، فلما تمت ، فرح بتمامها وتناولها لما يرجو لها من العافية ، فأما طبعه ، فما زالت عنه كراهة التناول أصلاً . ولو أن ملكاً قال لرجل فقير : كلما ضربتك بهذا العود اللطيف ضربة أعطيتك ألف دينار ، لأحب كثرة الضرب ، لا لأنه لا يؤلم ، ولكن لما يرجو من عاقبته ، وان أنكاه الضرب ، فكذلك السلف تلمحوا الثواب ، فهان عليهم البلاء .

فصل في بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم : أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد بالشفاء ، فالصبر وان كان شاقاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل ، فمنهما تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها ،

فيحتاج كل مرض الى علم وعمل يليق به ، فان العلل اذا اختلفت اختلف العلاج ، إذ معنى العلاج : مضادة العلة .

ونضرب لك مثالاً ، فنقول : إذا افتقر الانسان الى الصبر عن شهوة الجماع ، وقد غلبت عليه بحيث لا يملك فرجه ولا عينه ولا قلبه ، فعلاج ذلك بثلاثة أشياء :

أحدها : مواظبة الصوم ، والاقتصار عند الافطار على قليل من الطعام .

الثاني : قطع أسبابه المهيجة ، فإنه إنما يهيج بالنظر ، والنظر بالقلب ، والقلب يحرك الشهوة ، ودواء هذا العزلة ، والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة ، فان النظر سهم مسموم من سهام إبليس ، ولا يمنع عنه إلا غمض الجفن أو الهرب .

الثالث : تسلية النفس بالمباح من جنس المشتهى ، وذلك بالنكاح ، وكل ما يشتهيه الطبع من الحرام ، ففي المباحات غنية عنه ، وهذا هو العلاج الأرفع في حق أكثر الناس ، لأن قطع الغذاء يضعف ، ولا يقمع الشهوة بخلاف هذا .

وينبغي للانسان أن يعود نفسه المجاهدة ، فإن من عوَّد نفسه مخالفة الهوى ، غلبها متى أراد .

واعلم : أن أشد أنواع الصبر والمجاهدة ، كف الباطن من حديث النفس ، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ واعتزل ، فان الوساوس لا تزال تجاذبه ، ولا علاج لهذا إلا قطع العلائق ، وجعل الهم هماً واحداً ، وصرف الفكر الى ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى ، وجميع أبواب معرفة الله تعالى ، حتى إذا استولى ذلك على قلبه ، دفع اشتغاله مجاذبة الشيطان ووسواسه ، وإن لم يكن له سير الباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة ، من القراءة ، والأذكار ، والصلوات ، ويحتاج مع ذلك الى تكليف القلب الحضور ، فإن الفكر الباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ، فهذا الذي يمكن أن ينال بالاكتساب والجهد .

فأما مقادير ما ينكشف ، ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى من الأحوال والأعمال ، فذلك يجري مجرى الصيد ، وهو بحسب الرزق ، فقد يقل الجهد ، ويكثر الصيد ، وقد يطول الجهد ويقل الصيد ، والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبه من جذبات الرحمن عز وجل ، فإنها توازي أعمال الثقلين ، وليس ذلك الى اختيار العبد ، بل

اختياره أن يتعرض لتلك الجذبة ، بأن يقلع عن قلبه جواذب الدنيا ، فان المجذوب الى أسفل سافلين ، لا يجذب الى أعلى عليين ، وكل منهوم بالدنيا هو منجذب إليها ، فقطع العلائق الجاذبة ، هو المراد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها »[1] .

فالذي علينا تفريغ المحل ، والانتظار لنزول الرحمة ، كالذي يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ، ويضع فيها البذر ، وكل ذلك لا ينفع إلا بمطر ، ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر ، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى أنه لا يخلي سنة عن مطر ، وكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات .

فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب من حشيش الشهوات ، وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص ، وعرضه لمهاب ريح الرحمة ، وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع عند ظهور الغيم ، وكذلك انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة ، وعند اجتماع الهم ونشاط القلوب ، كيوم عرفة ، ويوم الجمعة ، وفي رمضان . والهمم والأنفاس أسباب لاستدرار رحمة الله تعالى بحكمته وتقديره .

* * *

الشطر الثاني من الكتاب

في الشكر وفضله وذكر النعم وأقسامها ونحو ذلك

قال الله تعالى : ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[آل عمران : ١٤٥] وقال الله تعالى : ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾[النساء : ١٤٧] وقال : ﴿وَقَلِيلٌ من عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[سبأ : ١٣] وقطع بالمزيد مع الشكر فقال : ﴿لَئِن شكرتم لأَزِيدَنَّكُم﴾[ابراهيم :٧] مع كونه وقف أشياء كثيرة غيره على المشيئة كقوله : ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ من فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾[التوبة : ٢٨] وقوله : ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَآءَ﴾[الأنعام : ٤١] وقوله : ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾[البقرة : ٢١٢] (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)[النساء : ٤٨] ، ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَآءُ﴾[التوبة : ١٥] .

---

(١) أخرجه الطبراني من حديث محمد بن مسلمة ، وفيه من لا يعرف .

ولما عرف إبليس قدر الشكر قال في الطعن على بني آدم : ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُم شَاكِرِينَ﴾[الأعراف : ١٧] .

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قام حتى تفطرت قدماه ، فقالت له عائشة رضي الله عنها : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! قال : « أفلا أكون عبداً شاكراً » .

وعن معاذ رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إني أحبك فقل : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » .

فصل [في كون الشكر بالقلب واللسان والجوارح]

والشكر يكون بالقلب ، واللسان ، والجوارح .

أما بالقلب ، فهو أن يقصد الخير ، ويضمره للخلق كافة .

وأما باللسان ، فهو إظهار الشكر لله بالتحميد .

وأما بالجوارح ، فهو استعمال نعم الله في طاعته ، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته ، فَمن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم ، ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه ، فهذا يدخل في جملة شكر هذه الأعضاء .

والشكر باللسان : إظهار الرضى عن الله تعالى ، وهو مأمور به . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « التحدث بالنعم شكر ، وتركها كفر »[1] .

وروي أن رجلين من الأنصار التقيا ، فقال أحدهما لصاحبه : كيف أصبحت ؟ فقال : الحمد لله . فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « قولوا هكذا » .

وروي أن رجلاً سلم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فرد عليه ، ثم قال له عمر : كيف أصبحت ؟ قال : أحمد الله ، فقال عمر : ذاك الذي أردت .

وقد كان السلف يتساءلون ، ومرادهم استخراج الشكر لله ، فيكون الشاكر مطيعاً ، والمستنطق مطيعاً .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » ٤/ ٢٧٨ من حديث النعمان بن بشير : قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر « مَن لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس ، لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب » وسنده حسن .

وقال أبو عبد الرحمن الحبلي : إن الرجل إذا سلم على الرجل ، وسأله كيف أصبحت ؟ فقال له الآخر : أحمد الله إليك ، قال : يقول الملك الذي عن يساره للذي عن يمينه : كيف تكتبها ؟ قال : أكتبه من الحامدين . فكان أبو عبد الرحمن إذا سئل : كيف أصبحت ؟يقول: أحمد الله إليك والى جميع خلقه .

فصل [في فعل الشكر لا يتم الا بمعرفة ما يحبه الله]

اعلم : أن فعل الشكر وترك الكفران ، لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى ، اذ معنى الشكر استعمال نعمه في محابه ، ومعنى الكفران نقيض ذلك ، إما بترك الاستعمال ، أو استعماله فيما يكرهه .

ولتمييز ما يحبه الله فيما يكرهه مدركان :

أحدهما : السمع ، ومستنده الآيات .

والثاني : بصيرة القلب ، وهو النظر بعين الاعتبار ، وهذا الأخير عسير عزيز ، ولذلك أرسل الله تعالى الرسل ، وسهل بهم الطرق على الخلق ، ومعرفة ذلك تبنى على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد ، فمن لا يطلع على حكم الشرع في جميع أفعاله ، لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلاً .

وأما الثاني : وهو النظر بعين الاعتبار ، فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه : إذ ما خلق الله تعالى شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة ، وتحت الحكمة مقصود ، وذلك المقصود هو المحبوب . وتلك الحكمة منقسمة الى جلّية وخفيّة .

أما الجلية ، فكالعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل الليل والنهار ، فيكون النهار معاشاً ، والليل سباتاً ، فتتيسر الحركة عند الابصار ، والسكون عند الاستتار ، فهذا من جملة حكم الشمس ، لا كل الحكمة فيها ، وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار .

وأما الحكمة في خلق الكواكب ، فخفية لا يطلع عليها كل الخلق ، وقد يطلعون على بعض ما فيها من الحكم ، نحو كونها زينة للسماء ، وجميع أجزاء العالم لا تخلو منه ذرة عن حكمة ، وكذلك أعضاء الحيوان ، منها ما تبين حكمته بياناً ظاهراً ، كالعلم بأن العين للابصار ، واليد للبطش ، والرجل للمشي .

فأما الأعضاء الباطنة ، كالمرارة ، والكلية والكبد ، وآحاد العروق ، والأعصاب وما فيها من التجاويف والرقة والغلظة ، فلا يعرف الحكمة فيها كل الناس ، والذين يعرفونها إنما يعرفون منها قدراً يسيراً بالنسبة الى علم الله تعالى ، فكل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها ذلك الشيء على غير الوجه الذي أريد به ، فقد كفر نعمة الله تعالى فيه ، فمن ضرب غيره بيده بغير حق ، فقد كفر نعمة الله تعالى في اليد ، لأنها خلقت ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه ، ويتناول ما ينفعه ، لا ليؤذي بها غيره ، وكذلك العين إذا نظر بها الى محرم ، فقد كفرنعمتها،ونعمة الشمس أيضاً ، إذ الإبصار يتم بها ، فالعين والشمس خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويبقى بهما ما يضره فيهما .

واعلم : أن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها ، أن يستعين بها الخلق على الوصول الى الله تعالى ، ولا وصول اليه إلا بمحبته ، والأنس به في الدنيا ، والتجافي عن غرور الدنيا ، ولا أنس إلا بدوام الذكر ، ولا محبة الا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر الا بدوام البدن ، ولا يبقى البدن الا بالأرض والماء والهواء ، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق جميع الأعضاء الباطنة والظاهرة ، وكل ذلك لأجل البدن ، والبدن مطية النفس ، والراجع الى الله هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله ، فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها ، لاقدامه على تلك المعصية .

ولنذكر مثالاً واحداً للحكم الخفيَّة التي ليست في غاية الخفاء ، حتى يعتبر بها ، ويعلم طريق الشكر والكفران على النعم ، فنقول : من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير اللذين بهما قوام الدنيا ، وهما حجران لا منفعة في أعينهما ، ولكن يضطر الخلق إليهما ، من حيث كل إنسان يحتاج الى أعيان كثيرة ، في مطعمه ، ومشربه ، وملبسه ، ومركبه ، وسائر حاجاته ، وقد يعجز عما يحتاج إليه ، ويملك ما يستغني عنه ، كمن يملك قدراً من الزعفران مثلاً وهو يحتاج الى جمل يركبه ، وآخر يملك الجمل ، وربما استغنى عنه ، ويحتاج الى الزعفران ، فلا بد بينهما من معاوضة ، ولا بد في مقدار العوض من تقدير، إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران ، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل ، حتى يعطى مثله في الوزن والصورة .

وكذا من يشتري داراً بثياب ، أو عبداً بخف ، أو دقيقاً بحمار ، فهذه الأشياء لا تناسب بينهما ، فخلق الله تعالى الدراهم والدنانير ، حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال ، حتى تقدر بهما ، فيقال : هذا الجمل يساوي مائة ، وهذا القدر من الزعفران يساوي مائة ، فحصل التساوي بينهما حينئذ ، وإنما أمكن التعديل بينهما بالنقدين ، إذ لا غرض في أعيانهما ، فإنه لو كان في أعيانهما غرض لم ينتظم الأمر. فخلقهما الله لتتداولهما الأيدي ، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل ، وجعلهما عزيزين في أنفسهما ، ونسبتهما الى سائر الأموال نسبة واحدة ، فمن ملكهما ، فكأنه ملك كل شيء .

إذا عرفت حكمتهما، فكل من عمل فيهما عملاً يخالف المقصود منهما ، ولا يليق بحكمتهما ، فقد كفر نعمة الله فيهما ، فمن كنزهما فقد أبطلهما وأبطل الحكمة فيهما ، وكان كمن حبس الحاكم بين المسلمين في سجن يمتنع من الحكم بسببه ، لأنه ضيعهما ومنع الأيدي من تداولهما. ولما كان كثير من الخلق عاجزين عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط إلهي لا يدرك بعين البصر ، بل بعين البصيرة ، أخبرهم الله تعالى بكلام سمعوه بواسطة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يَكنزونَ الذَّهبَ وَالفضَّة وَلاَ يُنفقُونَهَا في سبيل الله فَبشِّرهُم بِعذَابٍ أليم﴾ [التوبة : ٣٤] .

وكل من اتخذ الدراهم والدنانير آنية ، فقد كفر نعمة الله فيهما ، لأنه أسوأ حالاً ممن كنزهما .

ومثال ذلك من استعمل حاكم البلد في الحياكة والكنس والأعمال التي يقوم بها أخس الناس ، وذلك أن الحديد والنحاس والخزف وغيرها يقوم مقام الذهب والفضة في حفظ المائعات ، ولا تكفي تلك الأعيان عنهما ، ولا يقوم مقامهما فيما أريد بهما من كونهما قيم الأشياء ، فمن لم تنكشف له هذه الحكمة بالرحمة الإلهية قيل له : « من شرب في إناء ذهب او فضة ، فإنما يجرجر في بطنه نار جهنم » وكذلك كل من عامل بالربا في الدراهم والدنانير ، فقد أخرجهما عن مقصودهما ، فهذا مثال لحكمة خفيَّة من حكم النقدين .

فينبغي أن تعتبر شكر النعمة وكفرها بهذا المثال في غيره من جميع أمورك ، في حركتك ، وسكونك ، ونطقك ، وسكوتك في كل فصل صادر منك ، إما شكراً أو

عكسه ، وهو الكفر ، وبعض ذلك تصفه بالكراهة ، وبعضه بالحظر .

ومن ذلك أن الله تعالى خلق لك يدين ، وجعل إحداهما أقوى من الأخرى ، فاستحقت بمزيد القوة رجحاناً وشرفاً على الأخرى ، وقد أحوجك من أعطاك اليدين الى أعمال ، بعضها شريفة ، كأخذ المصحف ، وبعضها خسيسة ، كإزالة النجاسة ، فإذا أخذت المصحف باليسار ، وأزلت النجاسة باليمين ، فقد عكست المقصود ، وخصصت الشريف بما هو خسيس ، فظلمته .

وكذلك في الرجلين ، إذا ابتدأت باليسرى في لبس الخف ، فقد ظلمت اليمنى ، لأن الخف وقاية الرجل ، وقس على ذلك .

وكذلك نقول : من كسر غصناً من شجرة لغير حاجة مهمة وغرض صحيح ، فقد خالف الحكمة في خلق الأشجار ، لأنها خلقت للمنفعة بها ، فإن كان كسره لغرض صحيح ، فلا بأس ، وإن فعل ذلك في ملك غيره ، فهو ظالم ، وإن كان محتاجاً ، إلا أن يأذن صاحبه .

فصل في بيان النعم وحقيقتها وأقسامها

اعلم : أن كل مطلوب يسمى نعمة ، ولكن النعمة في الحقيقة هي السعادة الأخروية ، وتسمية ما عداها نعمة تجوز ، والأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم أربعة أقسام :

أحدها : ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعاً ، كالعلم ، وحسن الخلق ، وهو النعمة الحقيقية .

الثاني : ما هو ضار فيهما جميعاً ، وهو البلاء حقيقة .

القسم الثالث : ما ينفع في الحال ، ويضر في المآل ، كالتلذذ ، واتباع الشهوات ، فهو بلاء عند ذوي الأبصار ، والجاهل يظنه نعمة .

ومثاله : الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم ، فإنه يعده نعمة إن كان جاهلاً ، فإذا علم ذلك عده بلاءً .

القسم الرابع : الضار في الحال ، النافع في المآل ، وهو نعمة عند ذوي الألباب ، بلاء عند الجهال .

ومثاله : الدواء الشنيع مذاقه في الحال ، الشافي في المآل من الاسقام ، فالصبي

الجاهل ، إذا كلف شربه ظنه بلاء ، والعاقل يعده نعمة ، وكذلك إذا احتاج الصبي الى الحجامة ، فإن الأب يدعوه إليها ويأمره بها ، لما يلحظ في عاقبتها من الشفاء ، والأم تمنعه من ذلك لفرط حبها وشفقتها ، لكونها جاهلة بالمصلحة في ذلك ، فالصبي يتقلد منة أمه بجهله ، ويأنس إليها دون أبيه ، ويقدر أباه عدواً ، ولو عقل لعلم أن الأم هي العدو الباطن في صورة صديق ، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه الى أمراض أشد من ألم الحجامة ، فالصديق الجاهل شر من العدو العاقل ، وكل إنسان صديق نفسه ، ولكن النفس صديق جاهل ، فلذلك تعمل به ما لا يعمل العدو .

فصل في بيان كثرة نعم الله تعالى

وتسلسلها وخروجها عن الحصر والاحصاء

اعلم : أن النعم تنقسم الى ما هو غاية مطلوبة لذاتها ، والى ما هو مطلوب لأجل الغاية .

أما الغاية فهي سعادة الآخرة ، ويرجع حاصلها الى أربعة أمور : بقاء لا فناء له ، وسرور لاغم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر بعده ، وهي السعادة الحقيقية .

وأما القسم الثاني : فهو الوسائل الى السعادة المذكورة ، وهي أربعة أقسام :

أعلاها : فضائل النفس ، كالإيمان ، وحسن الخلق .

الثاني : فضائل البدن ، من القوة والصحة ونحوهما .

الثالث : النعم المطيفة بالبدن ، من المال والجاه والأهل .

الرابع : الأسباب التي جمع بينها وبين ما يناسب الفضائل ، من الهداية والإرشاد ، والتسديد ، والتأييد ، وكل هذه نعم عظيمة .

فإن قيل : ما وجه الحاجة لطريق الآخرة الى النعم الخارجة في المال والجاه ونحوهما ؟

قلنا : هذه الأشياء جارية مجرى الجناح المباح ، والآلة المستعملة للمقصود .

أما المال ، فإن طالب العلم إذا لم تكن معه كفاية ، كان كساع الى الهيجاء بغير سلاح ، ولأنه يبقى مستغرق الأوقات في طلب القوت ، فيشغله عن تحصيل العلم ، وعن الذكر ، والفكر ، ونحو ذلك .

وأما الجاه فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم ، ولا ينفك عن عدو يؤذيه ، وظالم يهوش عليه ، فيشغل قلبه ، وقلبه رأس ماله . وإنما تدفع هذه الشواغل بالعز والجاه .

وأما الصحة والقوة وطول العمر ونحوها ، فهي نعم ، إذ لا يتم علم ولا عمل إلا بذلك .

وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة ، والفراغ » .

ولما سئل : من خير الناس ؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله » .

وأما المال والجاه ، وإن كانا نعمتين ، فقد ذكرنا ما فيهما من الآفات فيما تقدم ، وأنهما ليسا بمذمومين على الإطلاق .

وأما الهداية والرشد والتسديد والتأييد ، فلا خفاء في كونها من أعظم النعم ، فلا يستغني أحد عن الحاجة الى التوفيق ، ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون الله للفتى فأكثر ما يجني عليه اجتهاده

فصل [من نعم الله الأسباب التي يتم بها الأكل]

واعلم : أنا قد ذكرنا جملة من النعم ، وجعلنا صحة البدن نعمة واحدة من النعم الواقعة في الرتبة الثانية ، فلو أردنا أن نستقصي الأسباب التي بها تمت هذه النعمة ، لم نقدر عليها ، ولكن الأكل أحد أسباب الصحة ، فلنذكر شيئاً من جملة الأسباب التي يتم بها الأكل على سبيل التلويح ، لا على سبيل الاستقصاء ، فنقول : من جملة نعم الله عليك أن خلق لك آلة الإحساس ، وآلة الحركة في طلب الغذاء ، فانظر الى ترتيب حكمة الله تعالى في الحواس الخمس ، التي هي آلة للادراك .

فأولهما : حاسة اللمس ، وهو أول حس يخلق للحيوان ، وأنقص درجات الحس ان يحس بما يلاصقه ، فإن الإحساس بما يبعد منه أتم لا محالة ، فافتقرت الى حس تدرك به ما بعد عنك ، فخلق لك الشم تدرك به الرائحة من بعد ، ولكن لا تدري من أي ناحية جاءت الرائحة ، فتحتاج أن تطوف كثيراً حتى تعثر على الذي شممت رائحته ،

وربما لم تعثر ، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك ، وتدرك جهته فتقصدها بعينها ، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً ، إذ لا تدرك بذلك ما وراء الجدار والحجاب ، فربما قصدك عدو بينك وبينه حجاب ، وقرب منك قبل أن يكشف الحجاب ، فتعجز عن الهرب ، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الحجرات عند جريان الحركات ، ولا يكفي ذلك ، لو لم يكن لك حسن الذوق ، إذ به تعلم ما يوافقك وما يضرك ، بخلاف الشجرة ، فإنه يصيب في أصلها كل مائع ، ولا ذوق لها فتجذبه ، وربما يكون ذلك سبب جفافها ، ثم أكرمك الله تعالى بصفة اخرى ، هي اشرف من الكل ، وهو العقل ، فبه تدرك الأطعمة ومنفعتها ، وما يضر في المآل ، وبه تدرك طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها ، فتنتفع به في الأكل الذي هو سبب صحتك ، وهو أدنى فوائد العقل ، والحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ، وما ذكرنا من الحواس الخمس الظاهرة ، فهي بعض الإدراكات . ولا تظن أننا استوفينا شيئاً من ذلك ، فإن البصر واحد من الحواس ، والعين آلة له ، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة : بعضها رطوبات ، وبعضها أغشية مختلفة ، لكل واحدة من الطبقات العشر ، صفة ، وصورة ، وشكل ، وهيئة ، وتدبير ، وتركيب ، لو اختلت طبقة واحدة منها أو صفة واحدة ، لاختل البصر ، وعجز عنه الاطباء كلهم ، فهذا في حس واحد ، وقس حاسة السمع وسائر الحواس ، ولا يمكن أن يستوفى ذلك في مجلدات ، فكيف ظنك بجميع البدن ؟ !

ثم انظر بعد ذلك في خلق الإرادة والقدرة ، وآلات الحركة من أصناف النعم ، وذلك أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الطعام ، ولم يخلق لك في الطبع شوق إليه وشهوة تستحثك على الحركة ، كان البصر معطلا ، فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له ، ولا يقدر على تناوله لسقوط شهوته ، فخلق لك الله شهوة الطعام وسلطها عليك ، كالمتقاضي الذي يضطرك الى تناول الغذاء .

ثم هذه الشهوة لو لم تسكن عند أخذ مقدار الحاجة من الطعام ، لأسرفت وأهلكت نفسك ، فخلق لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها ، وكذلك القول في شهوة الوقاع لحكمة بقاء النسل .

ثم خلق لك الأعضاء التي هي آلات الحركة في تناول الغذاء وغيره ، منها اليدان ،

وهما مشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات وتمتد وتنثني ، ولا تكون كخشبة منصوبة .

ثم جعل رأس اليد عريضاً ، وهو الكف ، وقسمه خمسة أقسام ، وهي الأصابع وجعلها مختلفة في الطول والقصر ، ووضعها في صفين ، بحيث يكون الابهام في جانب ، ويدور على الأصابع البواقي ، ولو كانت مجتمعة متراكمة ، لم يحصل تمام الغرض ، ثم خلق لها أظافر ، وأسند إليها رؤوس الأصابع ، لتقوى بها ، ولتلتقط بها بعض الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع ، ثم هب أنك أخذت الطعام باليد ، فلا يكفيك حتى يصل الى باطنك ، فجعل لك الفم واللحيين ، خلقهما من عظمين ، وركب فيهما الأسنان ، وقسمها بحسب ما يحتاج إليه الطعام ، فبعضها قواطع كالرباعيات ، وبعضها يصلح للكسر كالأنياب ، وبعضها طواحن كالأضراس . وجعل اللحي الأسفل متحركاً حركة دورية ، واللحي الأعلى ثابتاً لا يتحرك ، فانظر الى عجيب صنع الله تعالى . وإن كل رحى صنعها الخلق يثبت منها الحجر الأسفل ويدور الأعلى ، إلا هذه الرحى التي هي صنع الله سبحانه وتعالى ، فإنه يدور منها الأسفل على الأعلى ، إذ لو دار الأعلى خوطر بالأعضاء الشريفة التي يحتوي عليها .

ثم انظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان ، فإنه يطوف في جوانب الفم ، ويرد الطعام من الوسط الى الأسنان بحسب الحاجة ، كالمجرفة التي ترد الطعام الى الرحى ، هذا مع ما فيه من عجائب قوة النطق .

ثم هب أنك قطعت الطعام وعجنته وهو يابس ، فما تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق الى الحلق بنوع رطوبة .

فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عيناً يفيض منها اللعاب ، وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام .

ثم هذا الطعام المطحون المعجون من يوصله الى المعدة وهو في الفم ، فإنه لا يمكن إيصاله باليد ، فهيأ الله تعالى المريء[1] والحنجرة ، وجعل رأسها طبقات ينفتح لأخذ الطعام ، ثم ينطبق وينضغط حتى يقلب الطعام ، فيهوي في دهليز المريء الى المعدة ، فإذا ورد الطعام الى المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة ، فلا يصلح أن يصير لحماً

---

(١) قال في « القاموس » : والمريء ، كأمير : مجرى الطعام والشراب ، وهو رأس المعدة والكرش اللاصق بالحلقوم .

وعظماً ودماً على هذه الهيئة حتى يطبخ طبخاً تاماً ، فجعل الله المعدة على هيئة قدر يقع فيها الطعام ، فتحتوي عليه وتغلق عليه الأبواب ، وينضج بالحرارة التي تتعدى إليها من الأعضاء الأربعة ، وهي الكبد من جانبها الأيمن ، والطحال من جانبها الأيسر ، والثرب[1] من أمامها ، ولحم الصلب من خلفها ، فينضج الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ في تجاويف العروق ، ثم ينصب الطعام من العروق الى الكبد ، فيستقر فيها ريثما يصلح له نضج آخر .

ثم يتفرق في الأعضاء ويبقى منه ثقل ثم يندفع .

ولو استوفينا الكلام في ذلك لطال .

وفي الآدمي من العضلات والعروق ما لا يحصى ، مختلف بالصغر والكبر والدقة والغلظ، ولاشيء منها إلا وفيه حكمة ، وكل ذلك من الله سبحانه ، ولو سكن من جملتها عرق متحرك ، او تحرك عرق ساكن ، لهلكت يا مسكين .

فانظر الى نعم الله تعالى عليك ، لتقوى على الشكر ، فإنك لا تعرف من نعمة الله تعالى إلا نعمة الأكل ، وهي أخسها ، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل ، والبهيمة أيضاً تعرف انها تجوع وتأكل ، وتتعب فتنام ، وتشتهي فتجامع ، وإذا لم تعرف انت من نفسك إلا ما يعرف الحمار ، فكيف تقوم بشكر الله تعالى ؟ ! وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر من نعم الله تعالى ، فقس علي ذلك .

وجملة ما عرفنا وعرفه الخلق كلهم من نعم الله تعالى بالإضافة الى ما لم يعرفوه ، أقل من قطرة في بحر . قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾[ابراهيم : ٣٤ والنحل : ١٧] .

فصل [في عجائب الأغذية والأدوية]

واعلم : أن الأطعمة كثيرة مختلفة ، ولله تعالى في خلقها عجائب لا تحصى . وهي تنقسم الى أغذية وأدوية وفواكه وغيرها :

فنتكلم عن بعض الأغذية ، فنقول : إذا كان عندك شيء من الحنطة ، فلو أكلتها

---

(١) الثرب : شحم رقيق يغطي الكرش والأمعاء .

لفنيت وبقيت جائعاً ، فما أحوجك الى عمل ينمي به حب الحنطة ويتضاعف ، حتى يفي بتمام حاجتك ، وهو زرعها ، وهو أن تجعلها في أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طيناً ، ثم لا يكفي الماء والتراب ، إذ لو تركت في الأرض ندية صلبة ، لم تنبت لفقد الهواء ، فيحتاج الى تركها في أرض متخلخلة يتغلغل الهواء فيها ، ثم الهواء لا يتحرك اليها بنفسه ، فيحتاج الى ريح تحرك الهواء ، وتصرفه بقهر على الأرض ، حتى ينفذ فيها ، ثم كل ذلك لا يغني ، فيحتاج الى حرارة الربيع والصيف ، فإنه لو كان في البرد المفرط لم ينبت .

ثم انظر الى الماء الذي تحتاج إليه هذه الزراعة كيف خلقه الله تعالى ؟ فجَّر العيون وأجرى منها الأنهار ، ولما كان بعض الأرض مرتفعاً لا يناله الماء ، أرسل إليها الغيوم ، وسلط عليها الرياح لتسوقها بإذنه الى أقطار العالم ، وهي سحب ثقال ، ثم يرسله على الأرض مدراراً في وقت الحاجة .

وانظر كيف خلق الله الجبال حافظة للماء ، تنفجر منها العيون تدريجاً ، فلو خرجت دفعة واحدة لغرقت البلاد وهلك الزرع وغيره .

وانظر كيف سخر الشمس وخلقها ، مع بعدها عن الأرض ، مسخنة لها في وقت دون وقت ، ليحصل البرد عند الحاجة إليه ، والحر عند الحاجة إليه .

وخلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب ، كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه بتقدير الحكيم الخبير ، وكل كوكب خلق في السماء ، فهو مسخر لنوع فائدة ، كما سخرت الشمس والقمر . ولا يخلو كل واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر باحصائها ، وكذلك الشمس والقمر . فيهما حكم أخر غير ما ذكرنا لا تحصى .

ولما كانت كل الأطعمة لا توجد في كل مكان ، سخر الله تعالى التجار ، وسلط عليهم الحرص على جمع المال ، مع أنه لا يغنيهم في غالب الأمر شيء ، بل يجمعون الأموال ، فإما أن تغرق بها السفن أو تنتهبها قطاع الطرق ، أو يموتون في بعض البلاد ، فتأخذها السلاطين . وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم ، وهم أشد أعدائهم لو عرفوا . فانظر كيف سلط الله عليهم الأمل والغفلة ، حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح في ركوب البحار ، وركوب الأخطار ، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى

الشرق والغرب إليك .

واعلم : أن الخلق لم يقصروا عن شكر النعمة إلا للجهل والغفلة ، فإنهم منعوا بذلك عن معرفة النعم ، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول أحدهم بلسانه : الحمد لله ، والشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن تستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها ، وهي طاعة الله تعالى .

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب :

أحدها : أن الناس لجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق في جميع أحوالهم نعمة ، فلذلك لا يشكرون على جملة مما ذكرناه ، من النعم ، لأنها عامة للخلق ، مبذولة لهم في جميع أحوالهم ، فلا يرى واحد منهم اختصاصاً به ، فلا يعده نعمة ، فلا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ، ولو أخذ بمخنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ، ولو حبسوا في حمام أو بئر ماتوا غماً ، فإن ابتلي أحدهم بشيء من ذلك ثم نجا ، قدَّر ذلك نعمة يشكر الله عليها ، وهذا غاية الجهل ، إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ، ثم ترد إليهم في بعض الأحوال ، فالنعم في جميع الأحوال أولى بالشكر ، فلا ترى البصير يشكر صحة البصر إلا أن يعمى ، فإذا أعيد بصره أحس بالنعمة وشكرها حينئذ وعدها نعمة ، وهو مثل عبد السوء يضرب دائماً ، فإذا ترك ضربه ساعة ، شكر وتقلد ذلك منة ، وإن ترك ضربه أصلاً ، غلبه البطر وترك الشكر ، فصار الناس لا يشكرون إلا على المآل الذي يتطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة ، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم .

كما روي أن بعضهم شكا فقره الى بعض أرباب البصيرة ، وأظهر شدة اغتمامه بذلك ، فقال له : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ قال : لا ، قال : أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم ؟ قال : لا ، قال : أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً ؟ قال : لا ، قال : أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، قال : أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً .

وحكي عن بعض الفقراء أنه اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً، فرأى في المنام كأن قائلاً يقول له : أتود أنا أنسيناك سورة الأنعام ولك ألف دينار ؟ قال : لا . قال : فسورة هود ؟ قال : لا ، قال : فسورة يوسف ؟ قال : لا ، قال : فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو ؟ فأصبح وقد سري عنه .

ودخل ابن السماك على الرشيد في عظة ، فبكى ثم دعا بماء في قدح فقال : يا أمير المؤمنين ! لو منعت هذه الشربة إلا بالدنيا وما فيها ، أكنت تفديها بها ؟ قال : نعم . قال : فاشرب رياً ، بارك الله فيك . فلما شرب . قال له : يا أمير المؤمنين : أرأيت لو منعت إخراج هذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها ، أكنت تفتدي ذلك ؟ قال : نعم . قال : فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه !

وهذا يبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها ، ثم تسهيل خروج الحدث من أعظم النعم ، وهذه إشارة وجيزة الى النعم الخاصة .

اعلم : أن ما من عبد إلا إذا أمعن النظر رأى من نعم الله نعماً كثيرة لا يشاركه فيها عموم الناس ، بل قد يشاركه في ذلك كثير منهم ، من ذلك العقل ، فما من عبد إلا وهو راضٍ عن الله سبحانه في عقله ، يعتقد أنه أعقل الناس ، وقلما يسأل الله العقل ، وإذا كان ذلك اعتقاده ، فيجب عليه أن يشكر الله تعالى على ذلك .

ومن ذلك الخلق ، فإنه ما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها ، وأخلاقاً يذمها ، ويرى نفسه بريئاً منها ، فينبغي أن يشكر الله تعالى على ذلك ، حيث أحسن خلقه وابتلى غيره .

ومن ذلك أن ما من أحد إلا وهو يعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أركانها ما هو منفرد به ، ولو كشف الغطاء عنه حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح ، فكيف لو اطلع الناس كافة ؟ فلم لا يشكر الله بستر الجميل على مساويه ، حيث أظهر الجميل وستر القبيح ، ولننزل الى طبقة أعم من هذا القبيل ، فنقول : ما من عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته ، أو أخلاقه أو صفاته ، أو أهله ، أو ولده ، أو مسكنه أو بلده ، أو رفيقه ، أو أقاربه ، أو جاهه ، أو سائر محابه ، أموراً ، لو سلب ذلك وأعطي ما خصص به من ذلك غيره ، لكان لا يرضى به ، وذلك مثل أن جعله مؤمناً لا كافراً ، وحياً لا جماداً ، وإنساناً لا بهيمة ، وذكراً لا أنثى ، وصحيحاً لا مريضاً ، وسليماً لا معيباً ، فإن كل هذه خصائص .

فإن كان لا يرى أن يبدل حاله بحال غيره ، مثل أن لا يعرف شخصاً يرتضي لنفسه حاله بدلاً عن حال نفسه ، إما على الجملة ، أو في أمر خاص ، فان لله عليه نعماً ليست

له على أحد من عباده سواه ، وإن كان يرى أنه يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون بعض ، فلينظر الى عدد المغبوطين عنده ، فانه يراهم عنده لا محالة أقل من غيرهم ، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير ممن فوقه ، فما باله ينظر الى من فوقه ولا ينظر الى من دونه ؟ !

وفي « الصحيحين » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا نظر أحدكم الى من فضل عليه في المال والخلق ، فلينظر الى من هو أسفل منه ممن فضل عليه » . وقد رواه الترمذي بلفظ آخر : « انظروا الى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا الى من فوقكم ، فانه أجدر أن تزدروا نعمة الله عليكم »[1] .

فإن من اعتبر حال نفسه ، وفتش على ما خص به ، وجد لله تعالى عليه نعماً كثيرة ، لا سيما من خص الإيمان ، والقرآن ، والعلم ، والسنة ، ثم الفراغ ، والصحة والأمن وغير ذلك .

وقد روي في بعض الأحاديث « من قرأ القرآن فهو غني » . وفي لفظ : « القرآن غنى لا فقر بعده ، ولا غنى دونه »[2] .

وفي حديث آخر : « من أصبح آمناً في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

وقال بعضهم :

إذا ما القوت يأتي لـ ... كَ في الصحة والأمن
وأصبحت أخا حزن ... فلا فارقك الحزن

فإن قيل : فما علاج القلوب الغافلة عن شكر نعم الله تعالى ؟

فالجواب : أما القلوب المبصرة ، فتتأمل ما رمز إليه من أصناف نعم الله عزَّ وجل ، وأما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة إلا إذا نزل بها البلاء ، فسبيل صاحبها أن

---

(١) وهو في مسلم أيضاً ٤/ ٢٢٧٥ ونصه : « انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم ، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله » قال أبو معاوية وهو أحد الرواة « عليكم » .

(٢) رواه أبو يعلى والطبراني من حديث أنس رضي الله عنه وفي سنده يزيد بن أبان الرقاشي ، وهو ضعيف . قال الدارقطني : ورواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشي عن الحسن مرسلا ، وهو أشبه بالصواب .

ينظر أبداً الى من دونه ، ويفعل ما كان يفعله بعض القدماء ، فإنه كان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع البلاء عليهم ، ثم يتأمل صحته وسلامته ، ويشاهد الجناة الذين يقتلون ، وتقطع أيديهم وأرجلهم ويعذبون ، فيشكر الله على سلامته من تلك العقوبات ، ويحضر المقابر ، فيعلم أن أحب الأشياء الى الموتى أن يردوا الى الدنيا ، ليتدارك من عصا عصيانه ، وليزيد في الطاعة من أطاع ، فإن يوم القيامة يوم التغابن ، فإذا شاهد المقابر ، وعلم أحب الأشياء إليهم ، فليصرف بقية عمره في طاعة الله تعالى وشكره في الإمهال ، بأن يصرف العمر الى ما خلق لأجله ، وهو التزود للآخرة .

ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن يعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت .

كان الفضيل رحمه الله تعالى يقول : عليكم بمداومة الشكر على النعم ، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم .

فصل في بيان اجتماع الصبر والشكر على وجه واحد

لعلك تقول : قد ذكرت أن لله تعالى في كل موجود نعمة ، وهذا يشير الى أن البلاء لا وجود له أصلاً ، فما معنى الصبر ، وان كان البلاء موجوداً ، فما معنى الشكر على البلاء ؟ وكيف يجتمع الصبر والشكر ؟ ! فإن الصبر يستدعي ألماً ، والشكر يستدعي فرحاً ، وهما متضادان .

فاعلم أن البلاء موجود ، كما ان النعمة موجودة ، وأنه ليس كل بلاء يؤمر بالصبر عليه ، مثل الكفر ، فإنه بلاء ، ولا معنى للصبر عليه ، وكذا المعاصي ، إلا أن الكافر لا يعلم أن كفره بلاء ، فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بها بسبب غشيته ، والعاصي يعرف عصيانه ، فعليه ترك المعصية ، وكل بلاء يقدر الإنسان على دفعه لا يؤمر بالصبر عليه ، فلو ترك شرب الماء مع العطش حتى عظم ألمه ، لم يؤمر بالصبر على ذلك ، بل يؤمر بإزالة الألم ، وإنما يكون الصبر على ألم ليس الى العبد إزالته ، فإذن يرجع الصبر في الدنيا الى ما ليس ببلاء مطلق ، بل يجوز أن يكون نعمة من وجهه ، فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الشكر ووظيفة الصبر ، فإن الغنى مثلاً يجوز أن يصير سبب هلاك الإنسان ، حتى يقصد قتله بسبب ماله ، والصحة أيضاً كذلك ، فما من نعمة من نعم الدنيا إلا ويجوز أن تصير بلاء ،وقد يكون على العبد في بعض الامور

بلاء وفيه نعمة .

مثال ذلك ، جهل الإنسان بأجله ، فإنه نعمة عليه ، إذ لو عرفه تنغص عليه العيش ، وطال بذلك غمه ، وكذلك جهله بما يضمره بعض الناس له ، إذ لو اطلع عليه ، لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام ، وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره ، إذ لو عرف منه ذلك ، أبغضه وآذاه ، فكان ذلك وبالاً عليه .

ومن ذلك إبهام القيامة ، وليلة القدر ، وساعة الجمعة ، وكل ذلك نعمة ، لأن الجهل يوفر الدواعي على الطلب والاجتهاد ، فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل ، فكيف في العلم ؟ !

وقد قلنا : إن لله سبحانه في كل موجود نعمة ، حتى إن الآلام قد تكون نعمة في حق المتألم ، وقد تكون نعمة في حق غيره ، كألم الكفار في النار في الآخرة ، فإنه نعمة في حق أهل الجنة ، إذ لو لم يعذب قوم ، ما عرف المتنعمون قدر نعيمهم ، وإنما يتضاعف فرح أهل الجنة إذا ذكروا ألم أهل النار ، ألا ترى أن أهل الدنيا لا يشتد فرحهم بنور الشمس ، مع شدة حاجتهم إليها من جهة أنها عامة مبذولة ، ولا بالنظر الى زينة السماء ، وهي أحسن من كل نبت ، لأنها عامة ، فلذلك لم يشعروا بها ، ولم يفرحوا بسببها ، فإذا صح قولنا : إن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا وفيه حكمة ونعمة ، إما على جميع العباد ، أو على بعضهم ، ففي خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً ، إما على المبتلى ، أو على غيره ، فيجتمع على العبد وظيفة الشكر والصبر في كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ، ولا نعمة مطلقة ، فإن الإنسان قد يفرح بالشيء الواحد من وجه ، ويغتم به من وجه ، فيكون الصبر من حيث الاغتمام ، والشكر من حيث الفرح .

واعلم : أن في كل فقر ،ومرض،وخوف ، وبلاء في الدنيا ، خمسة أشياء ينبغي أن يفرح العاقل بها ، ويشكر عليها :

أحدها : أن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون عليه أكثر منها ، لأن مقدورات الله تعالى لا تتناهى ، فلو أضعفها الله عزَّ وجل على العبد ، فما كان يمنعه ؟ فليشكر إذ لم يكن أعظم .

الثاني : أن المصيبة لم تكن في الدين .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليَّ فيه أربع

نعم :إذ لم يكن في ديني ، وإذ لم يكن أعظم ، وإذ لم أحرم الرضى به ، وإذ أرجو الثواب عليه .

قال رجل لسهل بن عبد الله : دخل اللص بيتي وأخذ متاعي ، فقال : اشكر الله تعالى ، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك ، ماذا كنت تصنع ؟ ومن استحق أن يضربك مائة سوط ، فاقتصر على عشرة ، فهو مستحق للشكر .

الثالث : أن ما من عقوبة إلا كان يتصور أن تؤخر الى الآخرة ، ومصائب الدنيا يتسلى عنها فتخف ، ومصيبة الآخرة دائمة ، وإن لم تدم ، فلا سبيل الى تخفيفها ، ومن عجلت عقوبته في الدنيا لم يعاقب ثانياً ، كذا ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي « صحيح مسلم » : « إن كل ما يصاب به المسلم يكون كفارة له ، حتى النكبة ينكبها ، والشوكة يشاكها » .

الرابع : أن هذه المصيبة كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب ، ولم يكن بد من وصولها إليه ، فقد وصلت واستراح منها ، فهي نعمة .

الخامس : أن ثوابها أكثر منها ، فان مصائب الدنيا طرق الى الآخرة ، كما يكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي ، فانه لو خلي واللعب ، لكان يمنعه ذلك من العلم والأدب ، فكان يخسر طول عمره ، وكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء ، قد تكون سبباً لهلاكه ، فالملحدون غداً يتمنون أن لو كانوا مجانين وصبياناً ، ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى ، فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد ، إلا ويتصور أن يكون له في ذلك خيرة دينية ، فعليه أن يحسن الظن بالله عز وجل، ويقدر الخيرة فيما أصابه ويشكر الله تعالى عليه، فان حكمة الله تعالى واسعة ، وهو أعلم بمصالح العباد منهم ، وغداً يشكره العباد على البلاء إذا رأوا ثوابه ، كما يشكر الصبي بعد البلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه ، إذ رأى ثمرة ما استفاد من التأديب .

والبلاء تأديب من الله تعالى ، ولطفه بعباده أتم وأوفى من عناية الآباء بالأولاد . .

وفي الحديث : « لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له » .

وأيضاً ، فاعلم أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا ، ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عنها ، ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث

طمأنينة القلب الى الدنيا والأنس بها ، فإذا كثرت المصائب انزعج القلب عن الدنيا ولم يسكن إليها ، فصارت سجناً له ، فكانت نجاته منها غاية المراد كخلاص المسجون من السجن .

وأما التألم فهو ضروري وذلك يضاهي فرحك بمن يحجمك أو يسقيك دواء نافعاً بلا أجر ، فانك تتألم وتفرح ، فتصبر على الألم ، وتشكر على سبب الفرح ، فمن عرف هذا ، تصور منه أن يشكر على البلاء ، ومن لا يؤمن أن ثواب المصيبة أكثر منها لم يتصور منه الشكر على المصيبة .

وقد روي أن أعرابياً عزى ابن عباس رضي الله عنه بأبيه فقال :

اصبر نكن بك صابرين فإنما صبر الرعية عند صبر الراس
خير من العباس صبرك بعده والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما عزاني أحد أحسن من تعزيته .

وقد سبق ذكر أنواع البلاء ، وثواب الصبر عليها .

فإن قال قائل : الأخبار الواردة في فضل الصبر تدل على أن البلاء في الدنيا خير من النعيم ، فهل لنا أن نسأل الله عز وجل البلاء ؟

فالجواب : أنه لا وجه لذلك ، فإن في الحديث من رواية أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عاد رجلاً من المسلمين صار مثل الفرخ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « هل كنت تدعو بشيء ، أو تسأله » ؟ قال : نعم ، كنت أقول : اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة ، فعجله لي في الدنيا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه ، فهلا قلت : اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

ومن حديث أنس رضي الله عنه أيضاً ، أن رجلاً قال : يا نبي الله : أي الدعاء أفضل ؟ قال : « سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة » ، ثم أتاه الغد ، فقال : يا رسول الله : أي الدعاء أفضل ؟ قال : « سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة » ، ثم أتاه اليوم الثالث . فقال : « سل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، فان أعطيت العفو والعافية في الدنيا والآخرة فقد أفلحت » .

وفي « الصحيحين » أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « تعوذوا بالله من جهد

البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء » .

وقال مطرف : لأن أعافى فأشكر ، أحب إليَّ من أن أبتلى فأصبر .

فصل
في بيان أيهما أفضل الصبر أم الشكر

واختلف الناس : هل الصبر أفضل من الشكر ، أو بالعكس ؟ وفي ذلك كلام طويل ، ذكره المصنف رحمه الله ، وتلخيص القول فيه : أن لكل واحد من الصبر والشكر درجات .

فأقل درجات الصبر ، ترك الشكوى مع الكراهة ، ووراءها الرضى ، وهو مقام وراء الصبر ، ووراء ذلك الشكر على البلاء ، وهو وراء الرضى .

ودرجات الشكر كثيرة ، فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم حلم الله وستره شكر ، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله بغير استحقاق شكر ، والعلم بأن الشكر نعمة من نعم الله شكر ، وحسن التواضع في النعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الوسائط شكر ، لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » . وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر ، وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر ، فما يندرج من الأعمال والأقوال تحت اسم الشكر والصبر لا ينحصر ، وهي درجات مختلفة ، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر ؟

لكن نقول : إذا أضيف الى الشكر الذي هو صرف المال الى الطاعة ، فالشكر أفضل ، لأنه تضمن الصبر أيضاً ، وفيه فرح بنعمة الله عز وجل ، وفيه احتمال ألم في صرفه الى الفقراء ، وترك صرفه الى التنعم المباح ، فهو أفضل من الصبر بهذا الاعتبار .

وأما إذا كان شكر المال ألا يستعين به على معصية ، بل يصرفه الى التنعم المباح ، فالصبر هنا أفضل من الشكر ، والفقير الصابر أفضل من الممسك ماله الصارف له في المباحات ، لأن الفقير قد جاهد نفسه وأحسن الصبر على بلاء الله تعالى ، وجميع ما ورد من تفضيل أجزاء الصبر على الشكر ، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص ، لأن

السابق الى أفهام الناس ، من نعمة الأموال ، والغنى بها ، والسابق الى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان : الحمد لله . فإذن الصبر الذي يعتمده العامة أفضل من هذا الشكر الذي يفهمونه . ومتى لحظت المعنى الذي ذكرناه ، علمت بأن لكل واحد من القولين وجهاً في بعض الأحوال ، فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما ذكر ، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر ، وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير الذي لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة ، ويصرف الباقي في الخيرات ، أو يمسكه على اعتقاده أنه خازن للمحتاجين ، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها ، وإذا صرفه لم يصرفه لطلب جاه ولا تقليد منة ، فهذا أفضل من الفقير الصابر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

obeikandl.com

كتاب الرجاء والخوف

اعلم : أن الرجاء والخوف جناحان ، بهما يطير المقربون الى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤود ،ولا بد من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسببهما ، وما يتعلق بذلك . ونحن نذكرهما في شطرين :

الأول : في الرجاء . والثاني : في الخوف .

الشطر الأول : الرجاء .

واعلم : أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين ، وانما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام ، فإن كان عارضاً سريع الزوال سمي حالاً ، كما أن الصفرة تنقسم الى ثابتة ، كصفرة الذهب ، والى سريعة ، كصفرة الوجل ، والى ما بينهما كصفرة المرض ، وكذلك صفات القلب تنقسم الى هذه الأقسام ، وانما سمي غير الثابت حالاً ، لأنه يحول عن القلب .

واعلم : أن كل ما يلاقيك من محبوب أو مكروه ينقسم الى موجود في الحال ، والى موجود فيما مضى .

فالأول : يسمى وجداً وذوقاً وإدراكاً .

والثاني : يمسى ذكراً ، وان كان قد خطر ببالك شيء في الاستقبال ، وغلب على قلبك ، سمي انتظاراً وتوقعاً ، فإن كان المنتظر محبوباً ، سمي رجاء ، وان كان مكروهاً ، سمي خوفاً .

فالرجاء : هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عنده ، ولكن ذلك المتوقع لا بد له من سبب حاصل ، فإن لم يكن السبب معلوم الوجود ولا معلوم الانتفاء ، سمي تمنياً ، لأنه انتظار من غير سبب . ولا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه ، فأما ما يقطع به فلا ،إذ لا يقال : أرجو طلوع الشمس وأخاف غروبها ، لأن ذلك مقطوع به عند طلوعها وغروبها ، ولكن يقال : أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه .

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر فيه ، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها ، ومجرى حفر الانهار ومساقي الماء اليها .

وان القلب المستغرق بالدنيا ، كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر .

ويوم القيامة هو يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد الا ما زرع ، ولا ينمو زرع الا من بذر

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾[البقرة : ٢١٨] .

المعنى : أولئك الذين يستحقون أن يرجوا ، ولم يرد به تخصيص وجود الرجاء ، لأن غيرهم أيضاً قد يرجو ذلك .

واعلم : أن الرجاء محمود ، لأنه باعث على العمل ، واليأس مذموم ، لأنه صارف عن العمل ، إذ من عرف أن الأرض سبخة ، وأن الماء مغور ، وأن البذر لا ينبت ، ترك تفقد الأرض ، ولم يتعب في تعاهدها .

وأما الخوف ، فليس بضد الرجاء ، بل رفيق له ، كما سيأتي بيانه ان شاء الله تعالى .

وحال الرجاء يورث طريق المجاهدة بالأعمال ، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله عز وجل ، والتنعم بمناجاته ، والتلطف في التملق له ، فإن هذه الأحوال لا بد أن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك ، أو شخصاً من الأشخاص ، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله سبحانه وتعالى ؟ فمتى لم يظهر ، استدل به على حرمان مقام الرجاء ، فمن رجا أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات ، فهو مغرور .

فصل في فضيلة الرجاء

روي في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي »وفي رواية اخرى « فليظن بي ما شاء » .

وفي حديث آخر من رواية مسلم : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » .

وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام : أحبني ،وأحب من يحبني ، وحببني الى خلقي . قال : يارب : كيف أحببك الى خلقك ؟ قال : اذكرني بالحسن الجميل ،واذكر آلائي وإحساني .

وعن مجاهد رحمه الله قال : يؤمر بالعبد يوم القيامة الى النار ، فيقول : ما كان هذا ظني فيقول : ما كان ظنك ؟ فيقول : أن تغفر لي ، فيقول : خلوا سبيله .

الإيمان ، وقل أن ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه ، كما لا ينمو البذر في الأرض السبخة .

فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضاً طيبة ، وألقى فيها بذراً جيداً غير مسوس ولا عفن ، ثم ساق إليها الماء في أوقات الحاجة ، ونقّى الأرض من الشوك والحشيش وما يفسد الزرع ، ثم جلس ينتظر من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة ، الى أن يتم الزرع ويبلغ غايته ، فهذا يسمى انتظاره رجاء .

فأما إن بذر في أرض سبخة صلبة مرتفعة لا يصل اليها الماءولم يتعاهدها أصلاً ، ثم انتظر الحصاد ، فهذا يسمى انتظاره حمقاً وغروراً ، لا رجاء .

وإن بث البذر في أرض طيبة ، ولكن لا ماء لها ، وأخذ ينتظر مياه الأمطار ، سمي انتظاره تمنياً لا رجاءً .

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس الى اختياره ، وهو فضل الله سبحانه ، بصرف الموانع المفسدات ، فالعبد إذا بث بذر الإيمان ، وسقاه ماء الطاعات ، وطهر القلب من شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك الى الموت ، وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة ، كان انتظاره لذلك رجاءً محموداً باعثاً على المواظبة على الطاعات والقيام بمقتضى الإيمان الى الموت ، وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق ، وانهمك في طلب لذات الدنيا ، ثم انتظر المغفرة ، كان ذلك حمقاً وغروراً . قال الله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ من بَعْدهم خَلْفٌ وَرِثُوا الكتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا ﴾[الأعراف : ١٦٩] وذم القائل : ﴿ وَلَئن رددْتُ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ﴾[الكهف : ٣٦] .

وروى شداد بن أوس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله عز وجل الأماني »[1] .

وقال معروف الكرخي رحمه الله : رجاؤك لرحمة من لا تطيعه خذلان وحمق . ولذلك

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦١) وأحمد ٤/ ١٢٤ ، وابن ماجة (٤٢٦٠) وفي سنده أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني وهو ضعيف كان قد سرق بيته ، فاختلط ، وأخرجه الحاكم ١/ ٥٧ ، وصححه على شرط البخاري ، فتعقبه الذهبي بقوله : لا والله أبو بكر واه .

فصل في دواء الرجاء والسبب الذي يحصل به

اعلم : أن دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان :
إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة .
وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضر بنفسه وأهله .

فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة ، فلا ينبغي أن يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف ، فإن أدوية الرجاء تقلب في حقه سموماً ، كما أن العسل شفاء لمن غلبت عليه البرودة ، مضرٌ لمن غلبت عليه الحرارة .

ولهذا يجب أن يكون واعظ الناس متلطفاً ، ناظراً الى مواضع العلل ، معالجاً كل علة بما يليق بها ، وهذا الزمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة في التخويف ، وإنما يذكر الواعظ فضيلة أسباب الرجاء إذا كان مقصوده استمالة القلوب إليه ، لإصلاح المرضى .

وقد قال علي رضي الله عنه : إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله ، ولا يؤمنهم مكر الله .

إذا عرفت هذا ، فاعلم أن من أسباب الرجاء ، ما هو من طريق الاعتبار ، ومنها ما هو من طريق الاخبار . أما الاعتبار ، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه من أصناف النعم في كتاب الشكر ، فإذا علم لطائف الله تعالى بعباده في الدنيا، وعجائب حكمته التي راعاها في فطرة الانسان ، وأن لطفه الإلهي لم يقصر عن عباده في دقائق مصالحهم في الدنيا ، ولم يرض أن تفوتهم الزيادات في الرتبة ، فكيف يرضى سياقتهم الى الهلاك المؤبد؟! فان من لطف في الدنيا يلطف في الآخرة ، لأن مدبر الدارين واحد .

وأما استقراء الآيات والأخبار ، فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الذين اسرفوا عَلَىَ أنفُسِهِم لاَ تَقْنَطُوا من رَّحْمَةِ اللهِ إنّ اللهَ يَغْفِرُ الذُنُوب جَمِيعاً ﴾ [الزمر : ٥٣] . وقال تعالى : ﴿ وَالمَلائكَةُ يُسَبِّحُون بِحَمْدِ رَبهم وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن في الأَرْضِ ﴾ [الشورى : ٤] .

وأخبر تعالى أنه أعد النار لأعدائه ، وإنما خوف بها أولياءه ، فقال : ﴿ لَهُمْ من فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ ، وَمن تحتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾[الزمر : ١٦] . وقال تعالى :﴿ واتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[آل عمران : ١٣١] . وقال :

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى * لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [الليل: ١٤-١٦].

وقال تعالى: ﴿ وإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾[الرعد : ٦] .

ومن الأخبار ما روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إن إبليس قال لربه عزَّ وجل : بعزتك وجلالك ، لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم . فقال الله عز وجل : فبعزتي وجلالي ، لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني »[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « والذي نفسي بيده ، لو لم تذنبوا ، لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون فيغفر لهم » رواه مسلم .

وفي « الصحيحين » من حديث عائشة رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « سددوا وقاربوا وأبشروا ، فانه لن يدخل أحداً الجنة عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمته » .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا آدم : قم فابعث بعث النار فيقول : لبيك وسعديك والخير في يديك . يا رب : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، فحينئذ يشيب المولود ،﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[الحج : ٢] . فشق ذلك على الناس ، حتى تغيرت وجوههم ، وقالوا : يا رسول الله ! وأينا ذلك الواحد ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ، ومنكم واحد » فقال الناس : الله اكبر . فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « والله إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة . والله إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، والله إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » ، فكبر الناس ، فقال : « ما أنتم يومئذ في الناس إلا كالشعرة البيضاء في الثور الاسود ، أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض » .

فانظر كيف جاء بالتخويف ، فلما أزعج جاء باللطف ، ومتى اطمأنت القلوب الى

---

(١) اخرجه أحمد ٣/ ٢٩ ، ٧٦ والحاكم من حديث أبي سعيد الخدري وفيه دراج عن أبي الهيثم وهو ضعيف في روايته عنه ، وأخرجه أحمد ٣/ ٤١ من طريق آخر ورجاله ثقات ، إلا أن فيه انقطاعاً .

الهوى ، فينبغي أن تزعج فاذا اشتد قلقها ، ينبغي أن تسكن ليعتدل الأمر .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ليغفرن الله عز وجل يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر .

وروي أن مجوسياً استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام فلم يضفه وقال : إن أسلمت ، أضفتك ، فأوحى الله تعالى إليه : يا إبراهيم منذ تسعين سنة أطعمه على كفره فسعى إبراهيم عليه السلام خلفه ، فرده وأخبره في الحال ، فتعجب من لطف الله تعالى . فأسلم .

فهذه الأسباب التي تجتلب بها روح الرجاء الى قلوب الخائفين واليائسين . فأما الحمقى المغرورون ، فلا ينبغي أن يسمعوا شيئاً من ذلك ، بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف ، فان اكثر الناس لا يصلحون إلا على ذلك ، كعبد السوء الذي لا يستقيم إلا بالعصا .

الشطر الثاني من الكتاب في

الخوف وحقيقته وبيان درجاته وغير ذلك

اعلم : أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال .

مثال ذلك ، من جنى على ملك جناية ، ثم وقع في يده ، فهو يخاف القتل ، ويجوِّز العفو ، ولكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية الى قتله ، وتفاحش جنايته ، وتأثيرها عند الملك ، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف . وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية ، بل عن صفة المخوف وعظمته وجلاله ، إذ قد علم أن الله سبحانه ، لو أهلك العالمين لم يبال ، ولم يمنعه مانع ، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه ، وبجلال الله تعالى واستغنائه ، وأنه لا يسأل عما يفعل ، يكون خوفه .

وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أنا أعرفكم بالله ، وأشدكم له خشية »[1] . وقال تعالى ﴿إِنَّما يَخْشَى اللَّـهَ من عَبَاده

---

(١) أخرجه البخاري ١٠/ ٤٣٧ ، ومسلم (٢٣٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً فترخص فيه ، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه فكأنهم كرهوه ، وتنزهوا عنه ، فبلغه ذلك ، فقام خطيباً ، فقال : « ما بال رجال بلغهم عني أمر ترخصت فيه فكرهوه ، وتنزهوا عنه ، فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم خشية له » .

obeikandl.com

العُلَمَاءُ ﴾[فاطر : ٢٨] وإذا كملت المعرفة ، أثرت الخوف ، ففاض أثره على القلب ، ثم ظهر على الجوارح والصفات بالنحول والاصفرار والبكاء والغشي ، وقد يفضي الى الموت ، وقد يصعد الى الدماغ فيفسد العقل .

وأما ظهور أثره على الجوارح ، فبكفها عن المعاصي ، وإلزامها الطاعات ، تلافياً لما فرط ، واستعداداً للمستقبل .

قال بعضهم : من خاف أدلج . وقال آخر : ليس الخائف من بكى ، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه .

ومن ثمرات الخوف ، أنه يقمع الشهوات ، ويكدر اللذات ، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سماً ، فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويذل القلب ويستكين ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، ويصير مستوعب الهم لخوفه ، والنظر في خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة ، والمجاهدة ،والضِّنَّة بالأنفاس واللحظات ، ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله كحال من وقع في مخالب سبع ضارٍ لا يدري أيغفل عنه فيفلت ، أو يهجم عليه فيهلكه ، ولا شغل له إلا ما وقع فيه ، فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف ، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى ، وصفاته ، وبعيوب النفس ، وما بين يديها من الأخطار والأهوال .

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال ، أن يمنع المحظورات ، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم ، سمي ورعاً ، وإن انضم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش ، فهو الصدق .

فصل [الخوف سوط الله تعالى]

اعلم : أن الخوف سوط الله تعالى يسوق به عباده الى المواظبة على العلم والعمل ، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى .

والخوف ، له إفراط ، وله اعتدال ، وله قصور .

والمحمود من ذلك الاعتدال ، وهو بمنزلة السوط للبهيمة ، فإن الأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط ، وليس المبالغة في الضرب محمودة ، ولا المتقاصر عن الخوف أيضاً محمود ، وهو كالذي يخطر بالبال عند سماع آية ، أو سبب هائل ، فيورث البكاء ، فإذا

غاب ذلك السبب عن الحس ، رجع القلب الى الغفلة ، فهو خوف قاصر قليل الجدوى ، ضعيف النفع ، وهو كالقضيب الضعيف الذي يضرب به دابة قوية فلا يؤلمها ألماً مبرحاً ، فلا يسوقها الى المقصد ، ولا يصلح لرياضتها ، وهذا هو الغالب على الناس كلهم ، إلا العارفين والعلماء ، أعني العلماء بالله وبآياته ، وقد عز وجودهم . وأما المرتسمون برسوم العلم ، فإنهم أبعد الناس عن الخوف .

وأما القسم الأول ، وهو الخوف المفرط ، فهو كالذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج الى اليأس والقنوط ، فهو أيضاً مذموم ، لأنه يمنع من العمل ، وقد يخرج المرض والوله والموت ، وليس ذلك محموداً ، وكل ما يراد لأمر ، فالمحمود منه ما يفضي الى المراد المقصود منه ، وما يقصر عنه أو يجاوزه ، فهو مذموم ، وفائدة الخوف الحذر ، والورع ، والتقوى ، والمجاهدة والفكر ، والذكر ، والتعبد وسائر الأسباب التي توصل الى الله تعالى ، وكل ذلك يستدعي الحياة ، مع صحة البدن وسلامة العقل ، فإذا قدح في ذلك شيء ، كان مذموماً .

فإن قيل : فما تقول فيمن مات من الخوف ؟

فالجواب : أنه ينال لموته على تلك الحال مرتبة لا ينالها لو مات من غير خوف ، إلا أنه لو عاش وترقى الى درجات المعارف والمعاملة ، كان أفضل ، فإن أفضل السعادة طول العمر في طاعة الله تعالى ، فكل ما أبطل العمر والعقل والصحة فهو نقصان وخسران .

بيان أقسام الخوف

اعلم : أن مقامات الخائفين تختلف ، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة ، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة . وأعلى من هذا خوف السابقة ، لأن الخاتمة فرع السابقة ، والله تعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة ، ويضع من يشاء من غير وسيلة ، لا يسأل عما يفعل .

وقد قال : « هؤلاء في الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي » .

ومن أقسام الخائفين ، من يخاف سكرات الموت وشدته ، أو سؤال منكر ونكير ، أو عذاب القبر .

ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدي الله تعالى ، والخوف من المناقشة ، والعبور على الصراط ، والخوف من النار وأهوالها ، أو حرمان الجنة ، أو الحجاب عن الله سبحانه

وتعالى ، وكل هذه الأسباب مكروهة في أنفسها ، مخوفة .

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى ، وهو خوف العارفين ، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين .

فصل في فضيلة الخوف والرجاء وما ينبغي أن يكون الغالب منهما

فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة ، وهي لقاء الله تعالى ، والقرب منه ، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة . قال الله تعالى :﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[الرحمن : ٤٦] . وقال تعالى :﴿ رضيَ اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾[البينة : ٨] .

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إذا اقشعر جلد العبد من مخافة الله عزَّ وجل تحاتت عنه ذنوبه ، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها »[1] .

وفي حديث آخر : « لن يغضب الله على من كان فيه مخافة »[2]

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : قال الله عز وجل : « وعزتي وجلالي ، لا أجمع على عبدي خوفين ، ولا أجمع له أمنين ، إن أمنني في الدنيا ، أخفته يوم القيامة ، وإن خافني في الدنيا ، أمنته يوم القيامة »[3] .

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « عينان لا تمسهما النار أبداً : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله » .

واعلم : أن قول القائل : أيما أفضل الخوف ، أو الرجاء ؟ كقوله : أيما أفضل الخبز أو الماء ؟

وجوابه : أن يقال الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل ، فإن اجتمعا ، نظر إلى الأغلب ، فإن استويا ، فهما متساويان ،والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب ، ففضلهما بحسب الداء الموجود ، فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله ، فالخوف أفضل ، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية ، وإن كان الغالب

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي من حديث العباس رضي الله عنه بسند ضعيف كما قال الحافظ العراقي .

(٢) لم نجده

(٣) أخرجه ابن حبان (٢٤٩٤) من حديث أبي هريرة ، وسنده حسن .

عليه اليأس والقنوط ، فالرجاء أفضل . ويجوز أن يقال مطلقاً : الخوف أفضل ، كما يقال : الخبز أفضل من السكنجبين لأن الخبز يعالج به مرض الجوع ، والسكنجبين يعالج به مرض الصفراء ، ومرض الجوع أغلب وأكثر ، فالحاجة الى الخبز أكثر ، فهو أفضل بهذا الاعتبار ، لأن المعاصي والاغترار من الخلق أغلب .

وإن نظرنا الى موضع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل ، لأن الرجاء يُستقى من بحر الرحمة ، والخوف يُستقى من بحر الغضب .

وأما المتقي ، فالأفضل عنده اعتدال الخوف والرجاء ، ولذلك قيل : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه ، لاعتدلا .

قال بعض السلف : لو نودي : ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً ، لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل . ولو نودي : ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً ، لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل . وهذا ينبغي أن يكون مختصاً بالمؤمن المتقي .

فإن قيل : كيف اعتدال الخوف والرجاء في قلب المؤمن ، وهو على قدم التقوى ؟ فينبغي أن يكون رجاؤه أقوى .

فالجواب : أن المؤمن غير متيقن صحة عمله ، فمثله من بذر بذراً ولم يجرب جنسه في أرض غريبة ، والبذر الإيمان ، وشروط صحته دقيقة ، والأرض القلب ، وخفايا خبثه وصفائه من النفاق ، وخبايا الأخلاق غامضة ، والصواعق أهوال سكرات الموت ، وهناك تضطرب العقائد ، وكل هذا يوجب الخوف عليه ، وكيف لا يخاف المؤمن ؟

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل حذيفة رضي الله عنه : هل أنا من المنافقين ؟ وإنما خاف أن تلتبس حاله عليه ، ويستتر عيبه عنه ، فالخوف المحمود هو الذي يبعث على العمل ، ويزعج القلب عن الركون الى الدنيا .

وأما عند نزول الموت ، فالأصلح للانسان الرجاء ، لأن الخوف كالسوط الباعث على العمل ، وليس ثمة عمل ، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياط[1] قلبه ، والرجاء في هذه الحال يقوي قلبه ، ويحبب إليه ربه ، فلا ينبغي لأحد أن يفارق الدنيا

---

(١) النياط : عرق علق به القلب من الوتين .

إلا محباً لله تعالى ، محباً للقائه ، حسن الظن به .

وقد قال سليمان التيمي عند الموت لمن حضره : حدثني بالرخص ، لعلي ألقى الله وأنا أحسن الظن به .

فصل في بيان الدواء الذي يستجلب به الخوف

وذلك يحصل بطريقين :

أحدهما أعلى من الآخر . مثاله أن الصبي إذا كان في بيت ، فدخل عليه سبع ، أو حية ، ربما لم يخف منه ، وربما مد يده الى الحية ليأخذها يلعب بها ، ولكن إذا كان معه أبوه فهرب منها وخافها ، هرب الصبي ، وخاف موافقة لأبيه ، فخوف الأب عن معرفة ، وخوف الولد من غير معرفة ، بل هو تقليد لأبيه .

فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين :

أحدهما : الخوف من عذابه ، وهذا خوف عامة الخلق ، وهو حاصل بالإيمان بالجنة والنار ، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية ، ويضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان ، أو قوة الغفلة .

وزوال الغفلة يحصل بالتذكر ، والتفكر في عذاب الآخرة ، ويزيد بالنظر الى الخائفين ومجالستهم ، أو سماع أخبارهم .

المقام الثاني : الخوف من الله تعالى ، وهو خوف العلماء العارفين . قال الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

وصفاته سبحانه تقتضي الهيبة والخوف ، فهم يخافون البعد والحجاب .

قال ذو النون : خوف النار عند خوف الفراق ، كقطرة في بحر ، ولعامة الناس حظ من هذا الخوف ، ولكن بمجرد التقليد ، فهو يضاهي خوف الصبي من الحية ، تقليداً لأبيه ، فلذلك يضعف ، فإن العقائد التقليدية ضعيفة في الغالب ، إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المولدة لها على الدوام ، وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات ، واجتناب المعاصي ، فإذا ارتقى العبد الى معرفة الله تعالى ، خافه بالضرورة ، ولا يحتاج الى علاج يجلب الخوف الى قلبه ، بل يخاف بالضرورة .

ومن قصر ، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم ، وينسب عقولهم ومناصبهم الى مناصب الراجين المغرورين ، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى ، لأنهم الأنبياء والعلماء والأولياء .

وفي « صحيح مسلم » من حديث عائشة رضي الله عنها ، قالت : دعي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى جنازة غلام من الأنصار . فقلت : يا رسول الله ، طوبى لهذا ، عصفور من عصافير الجنة ، لم يدرك الشر ولم يعمله ، قال : « أو غير ذلك يا عائشة ؟ إن الله عز وجل خلق للجنة أهلاً ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلاً ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم » .

ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف ، قوله تعالى :﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾[طه : ٨٢] فإنه علق المغفرة على أربعة شروط ، يبعد تصحيحها .

ومن المخوفات قوله تعالى :﴿ وَالعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾[العصر : ١ - ٢] ثم ذكر بعدها أربعة شروط ، بها يقع الخلاص من الخسران . وقال تعالى :﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ، وَلَكِن حَقَّ القَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ من الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[السجدة : ١٣] .

ومعلوم أنه لو كان الأمر مستأنفاً لامتدت الأطماع في التحيل ، فأما ما حُقَّ في القدم ، فلا يمكن تداركه ، فليس إلا التسليم ، لولا أن الله تعالى لطف بعارفيه ، وروح قلوبهم بالرجاء ، لاحترقت من نار الخوف .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه .

ولما حضرت سفيان الثوري الوفاة ، جعل يبكي ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله : أراك كثير الذنوب ، فرفع شيئاً من الأرض وقال : والله لذنوبي أهون عندي من هذا ، ولكن أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت .

وكان سهل رحمه الله تعالى يقول : المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي ، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر .

ويروي أن نبياً من الأنبياء ، شكا الى الله تعالى الجوع والعري ، فأوحى الله عز وجل إليه :عبدى ،أما رضيت أن عصمت قلبك أن يكفرني حتى تسألني الدنيا ؟ ! فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال : بلى قد رضيت ، فاعصمني من الكفر .

فإذا كان هذا خوف العارفين من سوء الخاتمة مع رسوخ أقدامهم ، فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء ؟ !

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت ، مثل البدعة ، والنفاق ، والكبر ، ونحو ذلك من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف السلف من النفاق .

قال بعضهم : لو أعلم أني بريء من النفاق ، كان أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس ، ولم يريدوا بذلك نفاق العقائد ، إنما أرادوا نفاق الأعمال ، كما ورد في الحديث الصحيح : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

وسوء الخاتمة على رتبتين :

إحداهما أعظم ، وهي أن يغلب على القلب والعياذ بالله شك ، أو جحود عند سكرات الموت وأهواله ، فيقتضي ذلك العذاب الدائم .

والثانية دونها ، وهي أن يسخط الأقدار ، ويتكلم بالاعتراض ، أو يجور في وصيته ، أو يموت مصراً على ذنب من الذنوب .

وقد روي أن الشيطان لا يكون في حال أشد على ابن آدم من حال الموت ، يقول لأعوانه : دونكم هذا ، فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه كان يدعو : « اللهم إني أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت »[1] .

قال الخطابي : وذلك أن يستولي على الانسان حينئذ ، فيضله ويحول بينه وبين التوبة أو يمنعه الخروج من مظلمة ، أو يؤيسه من رحمة الله ويكره إليه الموت ، فلا

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٥٢) والنسائي ٨/ ٢٨٢ من حديث أبي اليسر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو : « اللهم إني أعوذ بك من الهدم ، وأعوذ بك من التردي ، وأعوذ بك من الحرق والغرق والهدم وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت ، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً وأعوذ بك أن أموت لديغاً » وسنده قوي ، وصححه الحاكم .

يرضى بقضاء الله عز وجل .

والأسباب التي تفضي الى سوء الخاتمة لا يمكن انحصارها على التفصيل ، لكن يمكن الاشارة الى مجامع ذلك . أما الختم على الشك والجحود ، فسببه البدعة ، ومعناها أن يعتقد في ذات الله تعالى ، أو صفاته ، أو أفعاله خلاف الحق ، إما تقليداً ، أو برأيه الفاسد ، فاذا انكشف الغطاء عند الموت ، بان له بطلان ما اعتقده ، فيظن أن جميع ما اعتقده هكذا لا أصل له .

ومن اعتقد في الله سبحانه وصفاته اعتقاداً مجملاً على طريقة السلف من غير بحث ولا تنقير ، فهو بمعزل عن هذا الخطر إن شاء الله تعالى .

وأما الختم على المعاصي ، فسببه ضعف الإيمان في الأصل ، وذلك يورث الانهماك في المعاصي ، والمعاصي مطفئة لنور الإيمان ، وإذا ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى ، فاذا جاءت سكرات الموت ، ازداد ذلك ضعفاً ، لاستشعاره فراق الدنيا ، فإن السبب الذي يفضي الى مثل هذه الخاتمة ، وهو حب الدنيا ، والركون إليها ، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله ، فمن وجد في قلبه حب الله تعالى ، أغلب من حب الدنيا ، فهو أبعد من هذا الخطر ، وكل من مات على محبة الله تعالى ، قدم به قدوم العبد المحسن المشتاق الى مولاه ، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم ، فضلاً عما يستحقه من الإكرام .

ومن فارقه الروح في حال ، خطر بباله فيها لإنكار على الله سبحانه في فعله ، أو كان مصراً على مخالفته ، قدم على الله قدوم من قدم به قهراً ، فلا يخفى ما يستحقه من النكال .

فمن أراد طريق السلامة ، تزحزح عن أسباب الهلاك ، على أن العلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال ، يقلقل قلوب الخائفين .

وقد ورد في « الصحيحين » من حديث سهل بن سعد ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار ، وإنه لمن أهل الجنة ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار » .

وروي : « إن العبد إذا عرج بروحه الى السماء ، قالت الملائكة : سبحان الله ! نجا هذا العبد من الشيطان : يا ويحه ! كيف نجا » ؟ !

وإذا عرفت معنى سوء الخاتمة ، فاحذر أسبابها ، وأعد ما يصلح لها ، وإياك والتسويف بالاستعداد ، فان العمر قصير ، وكل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك ، لأنه يمكن أن تخطف فيه روحك ، والإنسان يموت على ما عاش عليه ، ويحشر على ما مات عليه :

واعلم : أنه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح ، إلا أن تقنع بما يقيمك ، وترفض طلب الفضول ، وسنورد عليك من أخبار الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة من قلبك ، فانك متحقق أن الأنبياء والأولياء كانوا أعقل منك ، فتفكر في اشتداد خوفهم ، لعلك تستعد لنفسك .

ذكر خوف الملائكة عليهم السلام

قال الله تعالى في صفتهم : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم من فَوْقِهِم وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل : ٥٠] .

وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته »[1] . وذكر تمام الحديث .

وبلغنا أن من حملة العرش من تسيل عينيه مثل الأنهار ، فاذا رفع رأسه قال : سبحانك ما تُخشى حق خشيتك ، فيقول الله : لكن الذين يحلفون باسمي كاذبين لا يعلمون ذلك .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لما كان ليلة أسري بي ، رأيت جبريل عليه السلام كالشن[2] البالي من خشية الله تعالى » .

وبلغنا أن جبريل عليه السلام جاء الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يبكي فقال له : « ما يبكيك ، قال : ما جفت لي عين منذ خلق الله جهنم مخافة أن أعصيه ، فيلقيني فيها » .

وعن يزيد الرقاشي قال : إن لله تعالى ملائكة حول العرش تجري أعينهم مثل الأنهار الى يوم القيامة ، يميدون كأنما تنفضهم الريح من خشية الله تعالى ، فيقول لهم

---

(١) لم نجده .
(٢) الشن : القربة الخلق .

الرب عز وجل : يا ملائكتي ما الذي يخيفكم وأنتم عندي؟فيقولون: يا رب ! لو أن أهل الأرض اطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه ، ما أساغوا طعاماً ولا شراباً ، ولا انبسطوا في فرشهم ،ولخرجوا الى الصحارى يخورون كما تخور البقر .

وقال محمد بن المنكدر : لما خلقت النار ، طارت أفئدة الملائكة من أماكنها ، فلما خلق آدم عادت .

وروي أنه لما ظهر من إبليس ما ظهر ، طفق جبريل وميكائيل يبكيان ، فأوحى الله تعالى إليهما : « ما هذا البكاء ؟ قالا : يا رب ! ما نأمن من مكرك . فقال تعالى : هكذا فكونا » .

ذكر خوف الأنبياء عليهم السلام

قال وهب : بكى آدم عليه السلام على الجنة ثلاثمائة عام ، وما رفع رأسه الى السماء بعد ما أصاب الخطيئة .

وقال وهيب بن الورد : لما عاتب الله تعالى نوحاً عليه السلام في ابنه فقال : ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ [هود : ٤٦] بكى ثلاثمائة عام حتى صار تحت عينيه أمثال الجداول من البكاء .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : كان يسمع لصدر إبراهيم عليه السلام إذا قام الى الصلاة أزيز من بُعد خوفاً من الله عزَّ وجل .

وقال مجاهد : لما أصاب داود عليه السلام الخطيئة ، خر لله ساجداً أربعين يوماً حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه ، ثم نادى يا رب : قرح الجبين ، وجمدت العين ، وداود لم يرجع إليه في خطيئته شيء ، فنودي : أجائع أنت فتطعم ؟ أم مريض فتشفى ؟ أم مظلوم فتنصر ، فنحب نحيباً هاج كل شيء نبت ، فعند ذلك غفر له .

وقيل : كان داود عليه السلام يعوده الناس يظنون أنه مريض ، وما به إلا شدة الفرق من الله عز وجل .

وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً .

وبكى يحيى بن زكريا عليهما السلام حتى بدت أضراسه ، فاتخذت أمه قطعتين من لبود فألصقتهما بخديه .

ذكر خوف نبينا صلى الله عليه وآله وسلم

عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قطُّ مستجمعاً ضاحكاً ، حتى أرى لهواته[1] إنما كان يبتسم ، وكان إذا رأى غيماً وريحاً عرف ذلك في وجهه ، فقلت : يا رسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرِفَتِ الكراهةُ في وجهك ! فقال : « يا عائشة : ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا » أخرجاه في « الصحيحين » .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء .

ذكر خوف أصحابه رضي الله عنهم

روينا عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يمسك لسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد . وقال : يا ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل . وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر رضي الله عنهم .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع آية فيمرض فيعاد أياماً . وأخذ يوما تبنة من الأرض فقال : يا ليتني كنت هذه التبنة ، يا ليتني لم أك شيئاً مذكوراً ، يا ليت أمي لم تلدني . وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء .

وقال عثمان رضي الله عنه : وددت أني إذا مت لا أبعث .

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : وددت أني كنت كبشاً فذبحني أهلي ، فأكلوا لحمي ، وحسوا مرقي .

وقال عمران بن حصين : يا ليتني كنت رماداً تذوره الرياح .

---

(١) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق ، أو ما بين منقطع أصل اللسان الى منقطع القلب من أعلى الفم ، جمعها : لهوات ، ولهيات .

وقال حذيفة رضي الله عنه : وددت أن لي إنساناً يكون في مالي ، ثم أغلق عليَّ بابي ، فلا يدخل عليَّ أحد حتى ألحق بالله عزَّ وجل .

وكان مجرى الدمع في خد ابن عباس رضي الله عنه كالشراك البالي .
وقالت عائشة رضي الله عنها : يا ليتني كنت نسياً منسياً .

وقال علي رضي الله عنه : والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فما أرى اليوم شيئاً يشبههم . لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً ، بين أعينهم أمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله تعالى ، يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا الله عزَّ وجل ، مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، والله لكأن القوم باتوا غافلين .

ذكر خوف التابعين ومن بعدهم

قال هرم بن حيان : وددت والله أني شجرة أكلتني ناقة ، ثم قذفتني بعراً ، ولم أكابد الحساب يوم القيامة ، إني أخاف الداهية الكبرى .

وكان علي بن الحسين إذا توضأ اصفرَّ وتغير ، فيقال : ما لك ؟ فيقول : أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم ؟

وكان محمد بن واسع يبكي عامة الليل لا يكاد يفتر .

وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير ، ويبكي حتى تجري دموعه على لحيته . وبكى ليلة فبكى أهل الدار ، فلما تجلت عنهم العبرة قالت فاطمة : بأبي أنت يا أمير المؤمنين مم بكيت ؟ قال : ذكرت منصرف القوم من بين يدي الله تعالى ، فريق في الجنة ، وفريق في السعير . ثم صرخ وغشي عليه .

ولما أراد المنصور بيت المقدس ، نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز فقال له : أخبرني بأعجب ما رأيت من عمر . فقال : بات ليلة على سطح غرفتي هذه وهو من رخام ، فإذا أنا بماء يقطر من الميزاب ، فصعدت فإذا هو ساجد ، وإذا دموع عينه تنحدر من الميزاب .

وقد روينا عن عمر بن عبد العزيز وفتح الموصلي أنهما بكيا الدم .

وقال إبراهيم بن عيسى اليشكري : دخلت على رجل بالبحرين قد اعتزل الناس ، وتفرغ لنفسه ، فذاكرته شيئاً من أمر الآخرة ، وذكر الموت . قال : فجعل يشهق حتى خرجت نفسه .

وقال مسمع : شهدت عبد الواحد بن زيد وهو يعظ ، فمات يومئذ في ذلك المجلس أربعة أنفس .

وكان يزيد بن مرشد يبكي كثيراً ويقول : والله لو تواعدني ربي أن يسجنني في الحمام ، لكان حقي أن لا أفتر من البكاء ، فكيف وقد تواعدني أن يسجنني في النار إن عصيته ؟ !

وقال السري السقطي : إني لأنظر كل يوم الى أنفي مخافة أن يكون قد اسود وجهي .

فهذه مخاوف الملائكة والأنبياء والعلماء والأولياء ، ونحن أجدر بالخوف منهم ، ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب ولكن بصفاء القلوب وكمال المعرفة ، وإنما أمنا لغلبة جهلنا وقوة قساوتنا ، فالقلب الصافي تحركه أدنى مخافة ، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ .

قال بعض السلف : قلت لراهب : أوصني ، فقال : إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام ، فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فيفترسنه ، أو يسهو فينهشنه ، فهو مذعور فافعل . قلت : زدني . فقال : الظمآن يجزيه من الماء أيسره . وما ذكره هذا الراهب من تقدير شخص احتوشته السباع والهوام ، فهو حقيقة في حق المؤمن ، فان من نظر الى باطنه بنور بصيرته ، رآه مشحوناً بالسباع والهوام ، كالغضب ، والحقد ، والحسد ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، وغير ذلك ، وكلهن ينهشنه ويفترسنه إن سها عنهن ، إلا أنه محجوب عن مشاهدتها ، فاذا انكشف الغطاء ووضع في القبر ، عاينها متمثلة حيات وعقارب يلدغنه ، وإنما هي صفاته الحاضرة الآن ، فمن أراد أن يقهرها قبل الموت ويقتلها فليفعل ، وإلا فليوطن نفسه على لدغها لصميم قلبه ، فضلاً عن ظاهر بشرته والسلام .

آخر كتاب الخوف .

* * *

كتاب الزهد والفقر

اعلم : أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ،وبعضها أسباب كل طاعة ، وقد سبق ذم الدنيا في ربع المهلكات، ونحن نذكر الآن فضل البغض لها والزهد فيها ، فإنه رأس المنجيات . ومقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقراً ، وإما بانزواء العبد عنها ، ويسمى ذلك زهداً ، ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات ، وحظ في الإعانة على الفوز والنجاة . ونحن نذكر الفقر ، والزهد ، ودرجاتهما ، وأقسامهما ، وما يتعلق بهما في شطرين :

الشطر الأول من الكتاب في الفقر :

اعلم : أن الفقير الى الشيء هو المحتاج إليه ، وكل موجود سوى الله تعالى فهو فقير ، لأنه محتاج الى دوام الوجود ، وذلك مستفاد من فضل الله تعالى .

وأما فقر العبد بالإضافة الى أصناف حاجاته فلا يحصر ، ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال ، ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند فقره :

الأولى : أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به ، وهرب من أخذه بغضاً له ، واحترازاً من شره وشغله ، وصاحب هذه الحالة يسمى زاهداً .

الحالة الثانية : أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح بحصوله ، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ، وصاحب هذه الحالة يسمى راضياً .

الثالثة : أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه عفواً أو صفواً أخذه وفرح به ، وإن افتقر الى تعب في طلبه لم يشتغل به . وصاحب هذه الحالة يسمى قانعاً .

الرابعة : أن يكون تركه للطلب لعجزه ، وإلا فهو راغب فيه ، لو وجد سبيلاً الى طلبه بالتعب لطلبه ، وصاحب هذه الحالة يسمى الحريص .

الخامسة : أن يكون مضطراً الى ما قصده من المال ، كالجائع ، والعاري الفاقد للمأكول والملبوس . ويسمى صاحب هذه الحالة مضطراً ، كيفما كانت رغبته في الطلب ضعيفة أو قوية .

وأعلى هذه الخامسة : الحالة الأولى ، وهي : الزهد ، ووراءها حالة أخرى أعلى منها ، وهي أن يستوي عنده وجود المال وعدمه ، فإن وجده لم يفرح به ، ولم يتأذ إن فقده ، كما روينا عن عائشة رضي الله عنها أنها جاءها مال في غرارتين[1] ، ففرقته في يومها ، فقالت لها جاريتها : أما استطعت أن تشتري لنا مما قسمت لحماً بدرهم نفطر عليه ؟ فقالت : لو ذكرتيني لفعلت .

فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده لم تضره ، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى ، لا في يد نفسه .

وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغني ، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعاً ، ومتى كان الزاهد في الدنيا لا يرغب في وجودها ، ولا عدمها ، فهو في غاية الكمال .

قال أحمد بن أبي الحواري لأبي سليمان الداراني : قال مالك بن دينار للمغيرة : اذهب الى البيت فخذ الزكاة التي أهديتها لي ، فإن الشيطان يوسوس لي أن اللص قد أخذها ، فقال أبو سليمان : هذا من ضعف الزهد ، هو قد زهد في الدنيا ما عليه من أخذها . فالهرب من المال والزهد فيه في حق الضعفاء كمال، فأما في حق الأنبياء والأقوياء ، فسواء عليهم وجوده وعدمه . وقد يظهر القوي النفار من المال ليقتدي به الضعفاء في الترك ، والله أعلم .

فصل في فضيلة الفقر وتفضيل الفقر على الغنى

أما الآيات فقد قال الله تعالى في معرض المدح في حق الفقراء : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الَّذِينَ أُحصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ الآية [البقرة : ٢٧٣] . وقال : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم ﴾ . . . الآية [الحشر : ٨] .

وأما الأخبار فكثيرة ، منها : قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء ، إلا أن أصحاب الجد محبوسون » وذكر تمام الحديث . وهو في « الصحيحين » .

---

(١) الغرارة : الجوالق وهو وعاء توضع به الدراهم . جمعها : غرائر .

وفيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » .

وفيهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض .

وفي أفراد مسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يظل اليوم يلتوي ما يجد دقلا[1] يملأ بطنه .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام » وقال الترمذي : حديث صحيح .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لعائشة رضي الله عنها : « إياك ومجالسة الأغنياء »[2] .

وقال : « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله عز وجل إليه كما يعتذر الرجل الى الرجل في الدنيا ، فيقول : وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك عليّ ، ولكن لما أعددت لك من الكرامة . اخرج يا عبدي الى هذه الصفوف ، فمن أطعمك أو كساك يريد بذلك وجهي ، فخذ بيده فهو لك »[3] .

وقيل لموسى عليه السلام : إذا رأيت الفقر مقبلاً ، فقل : مرحباً بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل : ذنب عجلت عقوبته .

وقال أبو الدرداء : حساب ذي الدرهمين أشد حساباً من ذي الدرهم .

وكان الفقراء يتقدمون في مجلس [سفيان]الثوري على الأغنياء .

وجاء رجل الى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها ، وقال : تريد أن تمحو اسمي من ديوان الفقراء ! ؟ لا أفعل .

---

(١) الدقل : أردأ التمر .

(٢) أخرجه الترمذي (١٧٨١) من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : « إذا أردت اللحوق بي ، فليكفك من الدنيا كزاد الراكب ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تستخلقي ثوباً حتى ترقيعه » وفي سنده صالح بن حسان النضري متروك اتفقوا على ضعفه .

(٣) حديث لا يصح انظر « شرح الأحياء » ٩/ ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « طوبى لمن هدي الى الإسلام وكان عيشه كفافاً ، وقنع بما آتاه الله عز وجل » .

وقد ذكرنا في القناعة وذم الحرص والطمع في كتاب ذم المال ما يغني عن الإعادة ، ولا يقدر على ذلك إلا بعد قوة الصبر .

وأما التفضيل بين الغني والفقير ، فظاهر النقل يدل على تفضيل الفقير ، ولكن لا بد من تفصيل ، فنقول : إنما يتصور الشك والخلاف في فقير صابر ليس بحريص بالإضافة الى غني شاكر ينفق ماله في الخيرات ، أو فقير حريص مع غني حريص ، إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك ، وأن الغني المنفق ماله في الخير أفضل من الفقير الحريص ، فإن كان متمتعاً بالمال في المباحات ، فالفقير القنوع أفضل منه .

وكشف الغطاء في هذا أن ما يراد لغيره ، ولا يراد لعينه ، ينبغي أن يضاف الى مقصوده ، إذ به يظهر فضله ، والدنيا ليست محذورة لعينها ، بل لكونها عائقة عن الوصول الى الله تعالى ، والفقر ليس مطلوباً لعينه ، ولكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى ، وعدم التشاغل عنه .

وكم من غني لا يشغله الغنى عن الله تعالى ، كسليمان عليه السلام ، وكذلك عثمان [بن عفان] وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما .

وكم من فقير شغله فقره عن المقصود ، وصرفه عن حب الله تعالى والأنس به ، وإنما الشاغل له حب الدنيا ، إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى ، فإن المحب للشيء مشغول به ، سواء كان في فراقه ، أو في وصاله ، بل قد يكون شغله في الفراق أكثر .

والدنيا معشوقة الغافلين ، فالمحروم منها مشغول بطلبها ، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها . وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر ، فالفقير عن الخطر أبعد ، لأن فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ، ومن العصمة أن لا تجد ، ولما كان ذلك طبع الآدميين إلا القليل منهم ، جاء الشرع بذم الغنى وفضل الفقر . وقد تقدم ما يدل على فضله .

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « التقى مؤمنان على باب الجنة : مؤمن غني ، ومؤمن فقير ، كانا في الدنيا ، فأدخل الفقير الجنة ، وحبس الغني ما شاء الله تعالى أن يحبس ، ثم أدخل

الجنة ، فلقيه الفقير ، فقال : أي أخي : ماذا حبسك ؟ والله لقد احتبست حتى خفت عليك ، فقال : أي أخي : حبست بعدك محبساً فظيعاً كريهاً ، وما وصلت إليك حتى سال مني العرق ما لو ورده ألف بعير كلها آكلة حمض ، لصدرت عنه رواءً »[1] .

واعلم : أن فراق المحبوب شديد ، فإذا أحببت الدنيا ، كرهت لقاء الله تعالى ، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه ، وفراقك لما تحبه ، وكل من فارق محبوباً كان أذاه في فراقه بقدر حبه له وأنسه به ، فينبغي أن تحب من لا يفارقك ، وهو الله تعالى ، ولا تحب الدنيا التي تفارقك .

فصل في آداب الفقير في فقره

ينبغي له أن لا يكون كارهاً لما ابتلاه الله به من الفقر .

وأرفع من هذا أن يكون راضياً فرحاً ، ويكون متوكلاً على الله سبحانه ، واثقاً به ومتى عكس الحال ، وكان يشكو الى الخلق ، ولا يشكو الى الله تعالى ، كان الفقرعقوبة في حقه ، فلا ينبغي له إظهار الشكوى ، بل يظهر التعفف والتجمل . قال الله تعالى : ﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾[البقرة : ٢٧٣] .

وينبغي للفقير أن لا يتواضع لغني لأجل غناه ، ولا يرغب في مجالسته .

وينبغي له أيضاً أن لا يفتر عن العبادة بسبب فقره ، ولا يمنع بذل ما فضل عنه ، فإن ذلك جهد المقل . روى أبو ذر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله : أي الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد من مقل الى فقير في السر »[2] .

بيان آدابه في قبول العطاء

إذا جاءه بغير سؤال ينبغي أن يلاحظ فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال ، وغرض المعطي ، وغرضه في الأخذ .

[الأول] أما في نفس المال ، فينبغي أن يكون خالياً عن الشبهات كلها ، فان كان

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٠٤ ، وفي سنده مجهول .

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٧٨ و ١٧٩ و ٢٦٥ وفي سنده علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف .

فيه شبهة فليحترز عن أخذه .

وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة ، وما يجب اجتنابه ، وما يستحب .

وأما غرض المعطي ، فلا يخلو ، إما أن يكون طلباً للمحبة ، وهو الهدية ، فلا بأس بقبولها إذا لم تكن رشوة ولم يكن فيها منة .

الثاني : أن يكون غرض المعطي الثواب ، وهو الزكاة والصدقة ، فعليه أن ينظر في صفات نفسه ، هل هو مستحق أم لا ؟ فان اشتبه عليه فهو محل شبهة ، وإن كان صدقة ، فكان المعطي إنما يعطيه لدينه ، فلينظر الى باطنه ، فإن كان مقارناً لمعصية في السر ، يعلم ان المعطي لو علم بذلك ، لنفر طبعه ولما تقرب الى الله بالصدقة عليه ، لم يأخذه كما لو أعطاه لظنه انه عالم فلم يكن .

الثالث : أن يكون غرض المعطي الشهرة والرياء والسمعة ، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ، ولا يأخذه ، لأنه إذا قبله يكون معيناً له على قصده الفاسد . وأما غرضه في الأخذ ، فلينظر أهو محتاج اليه أو مستغن عنه ؟ فان مستغنياً لم يأخذه ، وإن كان محتاجاً إليه ، وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها ، فالأفضل له الأخذ ، لما روي عن عمر رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل ، فخذه ، ومالا فلا تتبعه نفسك » أخرجاه في « الصحيحين » .

وفي حديث آخر : « من جاءه من أخيه معروف من غير إشراف ولا مسألة ، فليقبله ولا يرده ، فإنما هو رزق ساقه الله إليه » .

فصل في بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر في السؤال

اعلم : أنه قد ورد في السؤال أحاديث في النهي عنه ، وفي الترخيص فيه .

أما الترخيص : فكقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « للسائل حق وان جاء على

فرس »[1] : وفي بعض الأحاديث : « ردوا السائل ولو بظلف محرق » . ولو كان السؤال حراماً ، لما جاز إعانة المعتدي على عدوانه ، والإعطاء إعانة .

وأما أحاديث النهي عن السؤال : فروى ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله عز وجل وليس في وجهه مزعة لحم » أخرجاه في « الصحيحين » .

وفيهما أيضاً : أنه صلى الله عليه وآله وسلم ذكر التعفف عن المسألة فقال : « اليد العليا خير من اليد السفلى » . واليد العليا المعطية ، والسفلى السائلة .

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه : أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من سأل وله ما يغنيه ، جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو كدوحاً في وجهه » الى آخره . وهو حديث حسن ، وفي المعنى أحاديث كثيرة .

وكشف الغطاء في هذا أن نقول : السؤال في الأصل حرام ، لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور :

أحدها : الشكوى .

والثاني : إذلال نفسه ، وما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه .

والثالث : إيذاء المسؤول غالباً .

وإنما يباح السؤال في حال الضرورة والحاجة المهمة القريبة من الضرورة . أما المضطر ، فهو كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً أو مرضاً ، وكسؤال العاري الذي ليس له ما يواريه .

وأما المحتاج حاجة مهمة فهو كمن له جبة ولا قميص تحتها في الشتاء ، فهو يتأذى بالبرد تأذياً لا ينتهي الى حد الضرورة ، فكذلك من يقدر على المشي لكن بمشقة ، يجوز له أن يسأل أجرة يكتري بها للركوب ، وتركه أولى . ومن وجد الخبز وهو محتاج الى الأدم ، فله أن يسأل مع الكراهة ، وكذلك إذا سأل المحمل من هو قادر على الراحلة .

وينبغي في مثل هذه المسألة أن يظهر الشكر لله تعالى ، ولا يسأل سؤال محتاج ،

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٠) وأبو داود (١٦٦٥) وفي سنده يعلى بن أبي يحيى لم يوثقه غير ابن حبان ، ومع ذلك فقد جود إسناده الحافظان العراقي والسخاوي وغيرهما ، وانظر « ذيل القول المسدد » ٦٨ ، ٧٠ ، فقد بسط القول في الكلام عليه .

بل يقول : أنا مستغن بما أملكه ، وإنما النفس تطالبني ، فيخرج بهذا عن حد الشكوى لله تعالى .

وينبغي أن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي لا ينقص بذلك في عينه ، أو السخي الذي أعد ماله للمكارم ، فيخرج بذلك من الذل .

وإن أخذ ممن يعلم أنه إنما أعطاه حياءً ، لم يجز له الأخذ ، ويجب رده الى صاحبه .

ولا يجوز للفقير أن يسأل إلا مقدار ما يحتاج إليه ، من بيت يكنه ، وثوب يستره ، وطعام يقيمه .

ويراعي في هذه الأشياء ما يدفع الزمان من غير تنوق[1] في شيء من ذلك ، فإن كان يعلم أنه يجد من يسأله كل يوم ، لم يجز أن يسأل أكثر من قوت يومه وليلته ، وإن خاف أن لا يجد من يعطيه ، أو خاف أن يعجز عن السؤال ، أبيح له السؤال أكثر من ذلك .

ولا يجوز له في الجملة أن يسأل فوق ما يكفيه لسنته ، وعلى هذا يتنزل الحديث المروي في تقدير الغنى بخمسين درهماً ، فإنها تكفي المنفرد المقتصد لسنة ، فأما ذو العائلة فلا .

بيان أحوال السائلين

كان بشر الحافي يقول : الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل ، وإن أعطي لا يأخذ ، فهذا من الروحانيين .

وفقير لا يسأل ، وإن أعطي أخذ ، فذاك من أهل حظيرة القدس .

وفقير إذا احتاج سأل ، فكفارة مسألته صدقه في السؤال .

قال الشيخ جمال الدين رحمه الله : قلت : وفصل الخطاب أنه متى قدر الفقير على دفع الزمان من غير سؤال ، لم يجز له أن يسأل ، فإن كان يندفع على مضض ، نظرت ، فإن كان مثله لا يحتمل ، ولا يخاف منه التلف ، فالسؤال مباح وتركه فضيلة ، وإن كان

---

(١) التنوق في الأمر : التأنق فيه .

مثله لا يحتمل ، وجب عليه أن يسأل .

قال سفيان الثوري رحمه الله : من جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار .

***

الشطر الثاني من الكتاب :

وفيه بيان حقيقة الزهد وفضيلته وذكر درجاته وأقسامه ونحو ذلك

اعلم : أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين ، والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء الى ما هو خير منه ، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً فيه بوجه من الوجوه ، فمن رغب عن شيء ليس مرغوباً فيه ولا مطلوباً في نفسه ، لم يسم زاهداً ، كمن ترك التراب لا يسمى زاهداً .

وقد جرت العادة بتخصيص اسم الزاهد بمن ترك الدنيا ، ومن زهد في كل شيء سوى الله تعالى ، فهو الزاهد الكامل ، ومن زهد في الدنيا مع رغبته في الجنة ونعيمها ، فهو أيضاً زاهد ، ولكنه دون الأول .

واعلم : أنه ليس من الزهد ترك المال ، وبذله على سبيل السخاء والقوة ، واستمالة القلوب ، وإنما الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة الى نفاسة الآخرة .

ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب ، والآخرة كالدر يبقى ، قويت رغبته في بيع هذه بهذه . وقد دل على ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى ﴾ [النساء : ٧٧] وقوله : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] .

ومن فضيلة الزهد قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [طه : ١٣١] .

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « من أصبح وهمه الدنيا ، شتت الله عليه أمره ، وفرق عليه ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ،

ومن أصبح وهمه الآخرة ، جمع الله له همه ، وحفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة » .

وقال الحسن : يحشر الناس عراةً ما خلا أهل الزهد ، وقال : إن أقواماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب،فأهينوها ، فأهناً ما تكون إذا أهنتموها .

وقال الفضيل : جعل الشر كله في بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله في بيت ، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا .

وكان بعض السلف يقول : الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن ، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن .

فصل في درجات الزهد وأقسامه

من الناس من يزهد في الدنيا وهو لها مشتهٍ ، لكنه يجاهد نفسه ، وهذا يسمى : المتزهد ، وهو مبدأ الزهد .

الدرجة الثانية : أن يزهد فيها طوعاً لا يكلف نفسه ذلك ، لكنه يرى زهده ويلتفت إليه ، فيكاد يعجب بنفسه ، ويرى أنه قد ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه ، كما يترك درهماً لأخذ درهمين ، وهذا أيضاً نقصان .

الدرجة الثالثة : وهي العليا أن يزهد طوعاً ، ويزهد في زهده ، فلا يرى أنه ترك شيئاً ، لأنه عرف أن الدنيا ليست بشيء ، فيكون كمن ترك خرقة ، وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ، فإن الدنيا بالاضافة إلى نعيم الآخرة ، أحسن من خرقة بالإضافة الى جوهرة ، فهذا هو الكمال في الزهد .

واعلم : أن مثل من ترك الدنيا ، مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه ، فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بذلك ودخل ، فقرب من الملك ، أفتراه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة ألقاها الى كلبه في مقابلة ما قد ناله ؟

فالشيطان كلب في باب الله عز وجل ، ويمنع الناس من الدخول ، مع أن الباب مفتوح ، والحجاب مرفوع ، والدنيا كلقمة ، فمن تركها لينال عز الملك ، فكيف يلتفت إليها ؟ ثم إن نسبتها ، أعني ما سلم لكل شخص منها ولو عمِّر ألف سنة بالإضافة

الى نعيم الآخرة ، أقل من لقمة بالإضافة الى ملك الدنيا ، لأن الفاني لا نسبة له الى الباقي ، كيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة ؟

وأما أقسام الزهد بالإضافة الى المرغوب فيه ، فعلى ثلاث درجات :

أحدها : الزهد للنجاة من العذاب ، والحساب ، والأهوال التي بين يدي الآدمي ، وهذا زهد الخائفين .

الدرجة الثانية : الزهد للرغبة في الثواب ، والنعيم الموعود به ، وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء تركوا نعيماً لنعيم .

الدرجة الثالثة : وهي العليا . وهو أن لا يزهد في الدنيا للتخلص من الآلام ، ولا للرغبة في نيل اللذات ، بل لطلب لقاء الله تعالى ، وهذا زهد المحسنين العارفين ، فإن لذة النظر الى الله سبحانه وتعالى بالإضافة الى لذات الجنة ، كلذة ملك الدنيا ، والاستيلاء عليها ، بالإضافة الى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به .

فصل في بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

والضروريات المهمات سبعة أشياء : المطعم ، والملبس ، والمسكن ، وأثاثه ، والمنكح ، والمال ، والجاه .

فأما **الأول** ـ وهو المطعم ـ فاعلم أن همة الزاهد منه ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاذ .

وفي الحديث : « إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين » .

وقالت عائشة رضي الله عنها لعروة : كان يمر بنا هلال ، وهلال ، وهلال ، ما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نار . قال : قلت : يا خالة : فعلى أي شيء كنتم تعيشون ؟ قالت : على الأسودين : الماء والتمر .

والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة .

وقد كان كثير من الزهاد يخشنون المطعم ، وكان فيهم من لا يطيق ذلك . فكان الثوري حسن المطعم ، وربما حمل في سفرته اللحم المشوي والفالوذج .

وفي الجملة فالزاهد يقصد ما يصلح به بدنه ، ولا يزيد في التنعم ، إلا أن الأبدان تختلف ، فمنها ما لا يحمل التخشن .

وقد يدخر بعض الناس الزاد الحلال بتقوته ، فلا يخرجه ذلك من الزهد ، فقد كان السبتي يعمل من السبت الى السبت ويتقوته .

وورث داود الطائي عشرين ديناراً ، فأنفقها في عشرين سنة .

الثاني : الملبس ، فالزاهد يقتصر فيه على ما يدفع الحر والبرد ، ويستر العورة ، ولا بأس أن يكون فيه نوع تجمل ، لئلا يخرجه التقشف الى الشهرة . وكان أكثر لباس السلف خشناً ، فصار لبس الخشن شهرة .

وقد روي عن أبي بردة قال : أخرجت إلينا عائشة رضي الله عنها كساء ملبداً ، وإزارا غليظاً ، وقالت : قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذين . أخرجاه في « الصحيحين » .

وعن الحسن قال : خطب عمر رضي الله عنه وهو خليفة ، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة .

الثالث : المسكن ، فللزاهد فيه ثلاث درجات .

أعلاها : أن لا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه ، بل يقنع بزوايا المساجد ، كأصحاب الصفة .

وأوسطها : أن يطلب موضعاً خاصاً لنفسه ، مثل كوخ من سعف ، أو خص وما أشبه ذلك .

وأدناها : أن يطلب حجرة مبنية . ومتى طلب السعة وعلو السقف ، فقد جاوز حد الزهد في المسكن . وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يضع لبنة على لبنة .

قال الحسن : كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، نلتُ السقف .

وفي الحديث : « إن المسلم ليؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب » .

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله : إذا كان البنيان كفافاً ، فلا أجر ولا وزر .
وفي الجملة : إن كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الزهد .

الرابع : أثاث البيت ، فينبغي للزاهد أن يقتصر فيه على الخزف ، ويستعمل الإناء الواحد في مقاصده ، فيأكل في القصعة ، ويشرب فيها ، ومن خرج الى كثرة العدد في الآلة ، أو في نفاسة الجنس ، خرج عن الزهد .

ولينظر الى سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . ففي « صحيح مسلم » من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو مضطجع على حصير ، وإذا الحصير قد أثر في جنبه ، فنظرت في خزانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإذا أنا بقبضة من شعير ، نحو الصاع . وفي رواية البخاري : فوالله ما رأيت شيئاً يرد البصر . والحديث مشهور في « صحيح مسلم »[1].

وقال علي رضي الله عنه : تزوجت فاطمة وما لي ولها فراش إلا جلد كبش ، كنا ننام عليه بالليل ، ونعلف عليه الناضح بالنهار ، وما لي خادم غيرها ، ولقد كانت تعجن ، وإن قُصتها[2] لتضرب حرف الجفنة من الجهد الذي بها .

ودخل رجل على أبي ذر رضي الله عنه ،فجعل يقلب بصره في بيته ، فقال : يا أبا ذر! مـا أرى فـي بيتك متاعاً ، ولا أثاثاً . فقال : إن لنا بيتاً نوجه إليه صالـح متاعنـا . فقال : إنه لا بد لك من متاع ما دمت ها هنا ، فقال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه .

الخامس : المنكح ، لا معنى للزهد في أصل النكاح ، ولا في كثرته .
قال سهل بن عبد الله : حبب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النساء .

وكان علي رضي الله عنه من أزهد الصحابة ، وكان له أربع نسوة ، وبضع عشرة سرية .

وكان أبو سليمان الداراني يقـول : كل ما شغلك عن الله ، من أهـل ، ومـال ، وولد ، فهو مشؤوم .

وكشف الغطاء عن ذلك أن نقول : من غلبت عليه شهوته وخاف على نفسه ، تعين عليه النكاح ، فأما من لا يخاف ، فهل النكاح في حقه أفضل أو التعبد ؟ فيه اختلاف بين

(١) انظر « صحيح مسلم » رقم (١٤٧٩) في الزهد : باب في الايلاء واعتزال النساء وتخييرهن .
(٢) القصة ، بالضم : شعر الناصية .

العلماء . والناس مختلفون فيه ، منهم من يقصد النكاح لطلب النسل ويمكنه الكسب الحلال للعائلة ، فلا يقدح ذلك في دينه ، ولا يتشتت قلبه ، بل يجمع النكاح همه ، ويكف بصره ، ويرد فكره ، فهذا غاية في الفضيلة ، وعليه يحمل حال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وحال علي رضي الله عنه ، ومن جرى مجراهما ، ولا التفات الى قول من يرى الزهد بترك الالتذاذ بالنكاح ، فإن ذلك يقع ضمناً وتبعاً للمقصود .

وقد كان بعض السلف يختار المرأة الدون على الجميلة ، وذلك محمول علىٰ أن تلك تكون الى الدين أميل ، والنفقة عليها أقل ، والاهتمام بأمرها يسير ، بخلاف المستحسنة ، فإنها تشتت القلب ، وتشغله ، وتريد زيادة في النفقة ، وربما لم يكن .

وقد قال مالك بن دينار : يعمد أحدهم فيتزوج ديباجة الحي فتقول : أريد مرطاً[1] فَتُمْرِطُ دينَه .

السادس : المال : وهو ضروري في المعيشة ، فالزاهد يقتصر منه على ما يدفع به الوقت ، وكان في الصالحين من يتشاغل بالتجارة ويقصد بها العفاف .

وكان حماد بن سلمة إذا فتح حانوته وكسب حبتين ، قام .

وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت ، وخلف أربعمائة دينار ، وقال : إنما تركتها لأصون بها عرضي وديني .

السابع : الجاه ، ولا بد للانسان من جاه حتى في قلب خادمه ، واشتغال الزاهد بالزهد يمهد له الجاه في القلب ، فينبغي أن يتحرز من شر ذلك .

وفي الجملة فإنّ الحوائج الضرورية ليست من الدنيا ، وكان كثير من السلف يعرض لهم بالمال الحلال ، فيقولون : لا نأخذه ، نخاف أن يفسد علينا ديننا .

فصل في بيان علامات الزهد

قد تظن أن تارك المال زاهد ، وليس كذلك ، فإن ترك المال ، وإظهار التخشن ، سهل على من أحب المدح بالزهد ، فكم من راهب قد لازم الدير ، وقلل المطعم ،

---

(١) المرط بكسر الميم : واحد المروط ، وهي أكسية من صوف أو خز كان يؤتزر بها ، وقوله « تمرط دينه » أي : تذهب به ، من قولهم : مرط الشعر : إذا نتفه .

وقوَّاه على ذلك حسب المحمدة ، كما سبق ذكره في كتاب الرياء .

ولا بد من الزهد في فضول الأموال والجاه جميعاً ، حتى يكمل الزهد في حظوظ النفس ، فأول معرفة الزهد مشكل .

وقد قال ابن المبارك : أفضل الزهد إخفاء الزهد ، وينبغي أن يعوَّل في هذا على ثلاث علامات .

الأولى : أن لا يفرح بموجود ، ولا يحزن على مفقود ، كما قال تعالى : ﴿ لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم ﴾[الحديد : ٢٣] . وهذا علامة الزهد في المال .

الثاني : أن يستوي عنده ذامه ومادحه ، وهذه علامة الزهد في الجاه .

الثالث : أن يكون أنسه بالله ، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة .

فأما محبة الدنيا ومحبة الله تعالى ، فهما في القلب كالماء والهواء في القدح ، إذا دخل الماء خرج الهواء ، فلا يجتمعان .

قيل لبعضهم : إلام أفضى بهم الزهد ؟ قال : الى الأنس بالله .

قال يحيى بن معاذ : الدنيا كالعروس ، ومن يطلبها ماشطتها[1] ، والزاهد يسخم[2] وجهها ، وينتف شعرها ، ويخرق ثوبها ، والعارف مشتغل بالله تعالى عنها .

فهذا ما أردنا ذكره من حقيقة الزهد وأحكامه .

وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى .

* * *

---

(١) الماشطة : التي تحسن المشط وحرفتها ومعناها هنا : تزينها .

(٢) يقال : سخم الله وجهه : أي سوده من السخمة وهي السواد .

كتاب التوحيد والتوكل

بيـان فضيلة التوكل

قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[آل عمران : ١٢٢] . وقـال : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[الطلاق : ٣] .

وفي الحديث : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر أنه يدخل الجنة من أمتـه سبعون ألفاً لا حساب عليهم ، ثم قال : « هم الذين لا يكتوون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » . أخرجاه في « الصحيحين » .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « لو أنكم توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير تغـدو خماصاً وتروح بطاناً » .

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلـم : « اللهـم إنـي أسـألك التـوفيق لمحابك من الأعمال ، وصدق التوكل عليك ، وحسن الظن بك »[1] .

والتوكل يبتني على التوحيد ، والتوحيد طبقات :

منها أن يصدق القلب بالوحدانية المترجم عنهـا قولك ، لا إلـه إلا الله وحـــده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، فيصدق بهذا اللفظ ، لكن من غير معرفة دليل ، فهو اعتقاد العامة .

الثـانية : أن يرى الأشياء المختلفـة ، فيراهـا صادرة عن الواحـد ، وهـذا مقـام المقربين .

الثالثة : أن يرى الإنسان إذا انكشف عن بصيرته أن لا فاعل سوى الله ، لم ينظر الى غيره ، بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل ، لأنه في الحقيقة هو الفاعل وحده ، فسبحانـه والـكل مسخـرون له ، فلا يعتمـد علـى المطـر في خروج الزرع ، ولا على الغيم في نزول المطر ، ولا على الريح في سير السفينة ، فإن الاعتماد على ذلك جهل بحقائق الأمور . ومن انكشفت له الحقائق ، علم أن الريح لا تتحرك

---

(١) ضعيف أخرجه أبو نعيم في « الحلية » عن الأوزاعي مرسلا ، والحكيم الترمذي عن أبي هريرة .

بنفسها ، ولا بد لها من محرك . فالتفات العبد في النجاة الى الريح يضاهي التفات من أخذ لتضرب عنقه ، فوقع له الملك بالعفو عنه ، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي كتب به التوقيع ، ويقول : لولا هذا القلم ما تخلصت ، فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم ، وهذا غاية الجهل . ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه ، شكر الكاتب دون القلم ، وكل المخلوقات في قهر تسخير الخالق أبلغ من القلم في يد الكاتب ، فسبحان مسبب الأسباب الفعَّال لما يريد .

فصل في بيان أحوال التوكل وأعماله وحده ونحو ذلك

اعلم : أن التوكل مأخوذ من الوكالة ، يقال : وكل فلان أمره الى فلان ، أي فوض أمره إليه ، واعتمد فيه عليه .

فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الموكل ، ولا يتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء : الشفقة ، والقوة ، والهداية . فإذا عرفت هذا ، فقس عليه التوكل على الله سبحانه ، وإذا ثبت في نفسك أنه لا فاعل سواه ، واعتقدت مع ذلك أنه تام العلم والقدرة والرحمة ، وأنه ليس وراء قدرته قدرة ، ولا وراء علمه علم ، ولا وراء رحمته رحمة ، اتكل قلبك عليه وحده لا محالة ، ولم يلتفت الى غيره بوجه ، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك ، فسببه أحد أمرين :

إما ضعف اليقين بأحد هذه الخصال .

وإما ضعف القلب باستيلاء الجبن عليه ، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه ، فإن القلب قد ينزعج ببقاء الوهم وطاعته له من غير نقصان في اليقين ، فإنه من كان يتناول عسلاً ،فشبه بين يديه بالعذرة ، ربما نفر طبعه منه ، وتعذر عليه تناوله .

ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت ، نفر طبعه من ذلك ، وإن كان متيقناً كونه ميتاً جماداً في الحال ، ولا ينفر طبعه عن سائر الجمادات ،وذلك جبن في القلب ، وهو نوع ضعف قلما يخلو الإنسان منه ، وقد يقوى ذلك حتى يصير مرضاً ، حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع غلق الباب وإحكامه .

فإذاً لا يتم التوكل إلا بقوة القلب ، وقوة اليقين جميعاً ، فإذا انكشف لك معنى

التوكل ، وعلمت الحالة التي تسمى توكلاً ، فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :

الأولى : ما ذكرناه ، وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى الثقة بكفالته وعنايته ، كحاله في الثقة بالوكيل .

الدرجة الثانية : وهي أقوى ، أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه ، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع الى سواها ، ولا يعتمد إلا إياها ، وإن نابه أمر كان أول خاطر يخطر على قلبه ، وأول سابق الى لسانه : يا أماه . فمن كان تألهه الى الله ، ونظره إليه ، واعتماده عليه ، كلف به كما يكلف الصبي بأمه ، فيكون متوكلاً حقاً .

والفرق بين هذا وبين الأول ، أن هذا متوكل قد فني في توكله عن توكله ، إذ لا يلتفت الى غير المتوكل عليه ، ولا مجال في قلبه لغيره .

وأما الأول ، فهو متوكل بالتكليف والكسب ، وليس فانياً عن توكله ، بل له التفات إليه ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده .

الدرجة الثالثة : وهي أعلى منهما ، أن يكون بين يدي الله تعالى مثل الميت بين يدي الغاسل ، لا يفارقه إلا أنه لا يرى نفسه ميتاً ، وهذا يفارق حال الصبي مع أمه فإنه يفزع الى أمه ، ويصيح ويتعلق بذيلها .

وهذه الأحوال توجد في الخلق ، إلا أن الدوام يبعد ، ولا سيما المقام الثالث .

فصل في بيان أعمال المتوكلين

قد يظن بعض الناس أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخرقة ، وكلحم على وضم[1] ، وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام في الشرع .

والشرع قد أثنى على المتوكلين ، وإنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه الى مقاصده ، وسعي العبد إما أن يكون لجلب نفع مفقود كالكسب ، أو حفظ موجود

---

(١) الوضم : كل شيء يجعل عليه اللحم من خشب أو بارية يوقى به من الأرض قال رشيد بن رميض العنزي :

ليس براعي إبل ولا غنم ... ولا بجزار على ظهر الوضم

كالادخار ، وإما لدفع ضرر لم ينزل ، كدفع الصائل ، أو لإزالة ضرر قد نزل ، كالتداوي من المرض ، فحركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة .

الفن الأول : في جلب المنافع ، فنقول : الأسباب التي بها تجلب المنافع على ثلاث درجات .

أحدها : سبب مقطوع به كالأسباب التي ارتبطت بها المسببات بتقدير الله تعالى ومشيئته ارتباطاً مطرداً لا يختلف ، مثاله : أن يكون الطعام بين يديك وأنت جائع ، فلا تمد يدك إليه وتقول : أنا متوكل ، وشرط التوكل ترك السعي ، ومد اليد الى الطعام سعي ، وكذلك مضغه وابتلاعه ، فهذا جنون محض ، وليس من التوكل في شيء ، فإنك إذا انتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون أكل الطعام ، أو يخلق في الطعام حركة إليك ، أو يسخر ملكاً ليمضغه ويوصله الى معدتك ، فقد جهلت سنة الله .

وكذلك لو لم تزرع ، وطمعت أن يخلق الله تعالى نباتاً من غير بذر ، أو تلد الزوجة من غير وقاع ، فكل ذلك جنون ، وليس التوكل في هذا المقام ترك العمل ، بل التوكل فيه بالعلم والحال .

أما العلم : فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام ، واليد ، والأسباب ، وقوة الحركة ، وأنه الذي يطعمك ويسقيك .

وأما الحال ، فهو أن يكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى ، لا على اليد والطعام ، لأنه ربما جفت يدك ، وبطلت حركتك ، وربما سلط الله عليك من يغلبك على الطعام ، فمد اليد الى الطعام لا ينافي التوكل .

الدرجة الثانية : الأسباب التي ليست متيقنة ، لكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها . مثاله من يفارق الأمصار ، ويخرج مسافراً الى البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادراً ، ولا يستصحب معه شيئاً من الزاد ، فهذا كالمجرب على الله تعالى ، وفعله منهي عنه ، وحمله للزاد مأمور به ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما سافر تزود واستأجر دليلاً الى المدينة .

الدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها الى المسببات من غير ثقة ظاهرة ، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه ، فمتى كان قصده صحيحاً وفعله لا يخرج عن الشرع ، لم يخرج عن التوكل ، لكنه ربما دخل

في أهل الحرص إذا طلب فضول العيش .

وترك التكسب ليس من التوكل في شيء ، إنما هو من فعل البطالين الذين آثروا الراحة ، وتعللوا بالتوكل .

قال عمر رضي الله عنه : المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله .

الفن الثاني : في التعرض للأسباب بالادخار ، ومن وجد قوتاً حلالاً يشغله كسب مثله عن جمع همه ، فادخاره إياه لا يخرجه عن التوكل ، خصوصاً إذا كان له عائلة .

وفي « الصحيحين » من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يبيع نخل بني النضير ، ويحبس لأهله قوت سنتهم .

فإن قيل : فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلالاً أن يدخر ، فالجواب : أن الفقراء كانوا عنده كالضيف ، فما كان ينبغي أن يدخر فيجوعون ، بل الجواب : أن حال بلال وأمثاله من أهل الصُفَّة كان مقتضاها عدم الادخار ، فإن خالفوا كان التوبيخ على الكذب في دعوى الحال لا على الادخار الحلال .

الفن الثالث : مباشرة الأسباب الدافعة للضرر . ليس من شرط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر ، فلا يجوز النوم في الأرض المسبعة[1] ، أو مجرى السيل ، أو تحت الجدار الخراب ، فكل ذلك منهي عنه .

وكذلك لا ينقض التوكل لبس الدرع ، وإغلاق الباب ، وشد البعير بالعقال . قال الله تعالى : ﴿ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُم ﴾[النساء : ١٠٢] .

وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله أعقلها وأتوكل ، أو أطلقها وأتوكل ؟ قال : « اعقلها وتوكل » .

ويتوكل في ذلك كله على المسبب لا على السبب ، ويكون راضياً بكل ما يقضي الله عليه . ومتى عرض له إذا سرق متاعه أنه لو احترز لم يسرق ، أو أخذ يشكو ما جرى عليه ، فقد بان بعده عن التوكل .

وليعلم أن القدر له كالطبيب ، فإن قدم إليه الطعام فرح ، وقال : لو لا أنه علم أن

---

(١) أرض مسبعة : أرض ذات سباع .

الغذاء ينفعني ما قدمه ، وإن منعه فرح ، وقال : لو لا أنه علم أن الغذاء يؤذيني لما منعني .

واعلم : أن كل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتقده المريض في الطبيب الحاذق الشفيق ، لم يصح توكله ، فإن سرق متاعه رضي بالقضاء ، وأحل الآخذ ، شفقة على المسلمين . فقد شكا بعض الناس الى بعض العلماء أنه قطع عليه الطريق ، وأخذ ماله ، فقال : إن لم يكن غمك كيف صار في المسلمين من يفعل هذا أكثر من غمك بمالك ، فما نصحت المسلمين .

الفن الرابع : السعي في إزالة الضرر ، كمداواة المريض ونحو ذلك .

اعلم : أن الأسباب المزيلة للضرر تنقسم الى ثلاثة أقسام :

الى مقطوع به ، كالماء المزيل لضرر العطش ، والخبز المزيل لضرر الجوع ، فهذا القسم ليس تركه من التوكل في شيء .

القسم الثاني : أن يكون مظنوناً ، كالفصد ، والحجامة ، وشرب المسهل ، ونحو ذلك . فهذا لا يناقض التوكل ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد تداوى وأمر بالتداوي .

وقد تداوى خلق كثير من المسلمين ، وامتنع عنه أقوام توكلاً ، كما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قيل له : ألا ندعو لك طبيباً؟ فقال : رآني الطبيب . قيل : فما قال لك ؟ قال : إني فعال لما أريد .

قال المصنف رحمه الله : والذي ننصره أن التداوي أفضل ، وتحمل حال أبي بكر رضي الله عنه أنه قد تداوى ثم أمسك بعد انتفاعه بالدواء ، أو يكون قد علم قرب أجله بأمارات .

واعلم : أن الأدوية أسباب مسخرة باذن الله تعالى .

القسم الثالث : أن يكون السبب موهوماً ، كالكي ، فيخرج عن التوكل ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصف المتوكلين بأنهم لا يكتوون .

وقد حمل بعض العلماء الكي المذكور في قوله : « لا يكتوون » على ما كانوا يفعلونه في الجاهلية ، فإنهم كانوا يكتوون ويسترقون في زمن العافية لئلا يمرضوا ، فإن

النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يرقي الرقية بعد نزول المرض ، وقد كوى أسعد بن زرارة رضي الله عنه .

وأما شكوى المريض ، فهي مخرجة عن التوكل ، وقد كانوا يكرهون أنين المريض ، لأنه يترجم عن الشكوى ، فكان الفضيل يقول :أشتهي مرضاً بلا عوّاد .

وقال رجل للامام أحمد : كيف أنت ؟قال:بخير . قال حممت البارحة ؟ قال : إذا قلت لك : أنا بخير ، فلا تخرجني الى ما أكره .

فأما إذا وصف المريض للطبيب ما يجده ، فإنه لا يضره . وقد كان بعض السلف يفعل ذلك ، ويقول : إنما أصف قدرة الله فيَّ ، ويتصور أن يصف ذلك لتلميذ يقويه على الضراء ويرى ذلك نعمة ، فيصف ذلك كما يصف النعمة شكراً لها ، ولا يكون ذلك شكوى .

وقد روينا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إني أوعك كما يوعك رجلان منكم » .

آخر التوكل .

كتاب المحبة والشوق والانس والرضى

اعلم : أن المحبة لله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها ، كالشوق ، والأنس ، والرضى ، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو من مقدماتها ، كالتوبة ، والصبر ، والزهد وغيرها .

واعلم : أن الأمة مجمعة على أن الحب لله ولرسوله فرض ، ومن شواهد المحبة قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ ﴾[المائدة : ٥٤] . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لله ﴾[البقرة : ١٦٥] وهذا دليل على إثبات الحب لله ، وإثبات التفاوت فيه .

وفي الحديث الصحيح : أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الساعة فقال : « ما أعددت لها ؟ » قال : يا رسول الله : ما أعددت لها من كثرة صلاة ولا صيام ، إلا أني أحب الله ورسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « المرء مع من أحب ، وأنت مع من أحببت » ، فما فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بها .

وروي أن ملك الموت جاء الى الخليل عليه السلام ليقبض روحه ، فقال له : هل رأيت خليلاً يميت خليله ؟ فأوحى الله إليه : هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه ؟ فقال : يا ملك الموت اقبض .

وقال الحسن البصري رحمه الله : من عرف ربه أحبه ، ومن أحب غير الله تعالى ، لا من حيث نسبته إلى الله ، فذلك لجهله وقصوره عن معرفته ، فأما حب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فذلك لا يكون إلا عن حب الله تعالى ، وكذلك حب العلماء والأتقياء ، لأن محبوب المحبوب محبوب ، بل إن ما يفعل المحبوب محبوب ، ورسول المحبوب محبوب ، وكل ذلك يرجع الى حب الأصل ، ولا محبوب في الحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى ، ولا مستحق للمحبة سواه .

وإيضاح ذلك يرجع الى أسباب :

أحدها : أن الإنسان يحب نفسه ، وبقاءه ، وكماله ، ودوام وجوده ، ويكره ضد ذلك من الهلاك والعدم والنقصان ، وهذا جبلة كل حي لا يتصور أن ينفك عنها . وهذا

يقتضي غاية المحبة لله عز وجل ، فإن الانسان إذا عرف ربه ، عرف قطعاً أن وجوده ودوامه وكماله من الله ، وأنه المخترع له ، الموجد لذاته بعد أن كان عدماً محضاً لولا فضل الله عليه بإيجاده ، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل ، ولذلك قال الحسن البصري : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا ، زهد فيها .

وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ، ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه .

السبب الثاني : أن الإنسان بالطبع يحب من أحسن إليه ولاطفه وواساه ، وانتدب لنصرته وقمع أعدائه ، وأعانه على جميع أغراضه ، فإنه محبوب عنده لا محالة .

وإذا عرف الإنسان حق المعرفة علم أن المحسن إليه هو الله سبحانه وتعالى فقط . وأنواع إحسانه لا يحيط به حصر ، كما قال تعالى : ﴿ وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [ابراهيم : ٣٤ والنحل : ١٨] .

وقد أشرنا الى طرف من ذلك في كتاب الشكر ، ولكنا نبين أن الاحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، وأن المحسن في الحقيقة هو الله تعالى .

بيان ذلك أنا نفرض أن شخصاً أنعم عليك بجميع خزائنه وما يملك ، ومكنك فيها لتتصرف كيف شئت ، فإنك تظن أن هذا الاحسان منه ، وهو غلط ، فإنه إنما تم إحسانه بماله ، وبقدرته على المال ، وبداعيته الباعثة له على صرف المال . فمن الذي أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق إرادته وداعيته ؟ ومن الذي حببك إليه ، وصرف وجهه إليك ، وألقى في نفسه أن صلاح دينه ودنياه في الإحسان إليك ، ولولا ذلك ما أعطاك ، فكأنه صار مقهوراً في التسليم لا يستطيع مخالفته . فالمحسن هو الذي اضطره وسخره لك ، فهو جارٍ مجرى خازن أمير أمره أن يسلم الى الإنسان خلعة خلعها عليه الأمير ، فإن الخازن لا يرى محسناً بتسليم خلعة الأمير ، لأنه مضطر الى طاعته ، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك . وكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه ، لم يبذل حبة من ماله حتى يسلط الله عليه الدواعي ، ويلقي في نفسه أن حظه في بذل ذلك فيبذله . فينبغي للعارف أن لا يحب الا الله ، إذ الإحسان من غيره محال .

السبب الثالث: أن المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه محبوب في الطباع ، فإنه إذا بلغك عن ملك من الملوك أنه عالم عادل عابد رفيق بالناس ، متلطف بهم وهو في

قطر بعيد ، فإنك تحبه ، وتجد في نفسك ميلاً كثيراً إليه . فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن ، فضلاً عن أن يكون محسناً إليك . وهذا ما يقتضي حب الله تعالى ، بل يقتضي أن لا يحب غيره ، إلا بحيث أن يتعلق منه بسبب ، فإنه سبحانه هو المحسن الى الكل كافة ، بإيجادهم وتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم وترفيههم ، الى غير ذلك من النعم التي لا تحصى ، كما قال تعالى : ﴿ وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوها ﴾[ابراهيم: ٣٤ والنحل : ١٨] . فكيف يكون غيره محسناً ؟ وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ، فمن عرف هذا لم يحب إلا الله تعالى .

وكذلك نقول : كل من كان متصفاً بالعلم ، أو بالقدرة أو كان متنزهاً عن الصفات الرذيلة ، فإن ذلك يوجب له المحبة . فصفات الصِّديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً ، ترجع الى علمهم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه ، والى قدرتهم على إصلاح نفوسهم والى تنزيههم عن الرذائل والخبائث . ولمثل هذه الصفات تحب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإذا نسبت هذه الصفات الى صفات الله تعالى ، وجدتها مضمحلة بالنسبة الى صفاته سبحانه وتعالى .

أما العلم ، فإن علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل ، حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض . وقد خاطب الخلق كلهم فقال : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم من العلْمِ إلاَّ قَليلاً ﴾[الاسراء : ٨٥] .

ولو اجتمع أهل السموات والأرض، على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة ، أو بعوضة ، لم يطلعوا على عشر عشر ذلك ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، والقدر اليسير الذي علمه الخلق كلهم ، بتعليمه علموه . ففضل علم الله سبحانه على علم الخلائق كلهم خارج عن النهاية ، إذ معلوماته لا نهاية لها .

وأما صفة القدرة ، فهي أيضاً صفة كمال ، فإذا نسبت قدرة الخلق كلهم الى قدرة الله تعالى ، وجدت أعظم الأشخاص قوة ، وأوسعهم ملكاً ، وأقواهم بطشاً ، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ، غاية قدرته أن يقدر على بعض صفات نفسه ، وعلى بعض امتحان الإنس في بعض الأمور ، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ، ولا على حفظ لسانه من الخرس ، ولا آذانه من الصمم ، ولا بدنه من المرض ، ولا يقدر

علي ذرة من ذرات المخلوقات . وما هو قادر عليه من نفسه وغيره ، فليست قدرته من نفسه ، بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك . ولو سلط بعوضة على أعظم ملك وأقوى شخص لأهلكته ، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه .

قال الله تعالى في حق أعظم ملوك الأرض ذي القرنين : ﴿ إِنَّا مَكنا لَهُ في الأَرض ﴾ [الكهف : ٨٤] فلم يكن جميع ملكه وسلطانه إلا بتمكين الله تعالى ، فنواصي الخلق جميعهم في قبضته وقدرته ، إن أهلكهم لم ينقص من ملكه وسلطانه ذرة ، وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعبأ بخلقه ، فلا قادر إلا هو ، فله الكمال والعظمة والبهاء والكبرياء والقهر والاستيلاء . فإن تُصُورَ أن تحب قادراً لكمال قدرته وعظمته وعلمه ، فلا يستحق ذلك سواه ، ولا يتصور كمال التقديس والتنزيه إلا له سبحانه ، فهو الواحد الذي لا ند له ، الفرد الذي لا ضد له ، الصمد الذي لا منازع له ، الغني الذي لا حاجة له ، القادر الذي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، العالم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وكمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ، وهو المستحق لكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً .

فصل في بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله سبحانه

والنظر الى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن يؤثر
على ذلك لذة أخرى الا من حرم هذه اللذة

اعلم : أن اللذات تابعة للادراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة غريزة لذة ، ولم تخلق هذه الغرائز عبثاً ، بل لأمر من الأمور ، وهو مقتضاها بالطبع ، فغريزة شهوة الطعام خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام ، ولذة البصر والسمع في الإبصار والإسماع .

وكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي ، وقد تسمى العقل ، وتسمى البصيرة الباطنة ، وتسمى نور الإيمان واليقين ، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها بطبعها ، فمقتضى طبعها العلم والمعرفة ، وذاك لذتها .

وليس يخفى أن العلم والمعرفة ، ولو في شيء خسيس يفرح به ، وأن من ينسب الى الجهل ولو في شيء خسيس يغتم به . وكل ذلك لفرط لذة العلم ، وما يستشعره من كمال ذاته . فان العلم من أحسن الصفات ومنتهى الكمال ، ولذلك يرتاح الإنسان بطبعه إذا أثني عليه بالذكاء ، وغزارة العلم ، ثم ليس لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ، ولا لذة العلم بالشعر والنحو ، كلذة العلم بالله تعالى وملائكته وملكوت السموات والأرض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها ، وشرفها بحسب شرف المعلوم ، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم ، فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها .

وليت شعري ، هل في الوجود شيء أجلّ وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها . ومزيِّنها ومبديها ومعيدها ومدبرها ومرتبها ؟ ! وهل يتصور أن يكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بجلالها وكمالها وعجائب أمورها وصف الواصفين ؟ !

فينبغي أن تعرف أن لذة المعرفة أقوى من جميع اللذات المدركة بالحواس الخمس ، فإن المعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة . فلو خيِّر الرجل بين لذة أكل الدجاج السمين واللوزينج ، وبين لذة الرياسة ، وقهر الأعداء ، ونيل درجة الاستيلاء ، فان كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد الشهوة البهيمية اختار اللحم والحلواء ، وإن كان عليَّ الهمة ، كامل العقل ، فإنه يختار الرياسة ، ويهون عليه الجوع والصبر على ضرورة القوت أياماً .

فاختياره للرياسة دليل على أنه ألذ عنده من المطعومات الطيبة ، وكما أن لذة الرياسة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الناقص الهمة ، فلذة معرفة الله سبحانه وتعالى والنظر الى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق ، وهذا لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً ، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر ، وينغمس في بحار المعرفة ، ويترك الرياسة ، ويحتقر الخلق ، لعلمه بفتاء رياسته وفناء من عليه رياسته ، وكون ذلك مشوباً بالكدر ، مقطوعاً بالموت . وتعظم عنده معرفة الله سبحانه وتعالى ، ومطالعة صفاته وأفعاله ، ونظام مملكته ، فإنها خالية عن المزاحمات والمكدرات ، متسعة للمتواردين عليها ، لا تضيق عنهم ، فلا يزال

العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض ، يرتع في رياضها ، ويقطف من ثمارها ، ويكرع من حياضها ، وهو آمن من انقطاعها ، إذ هي أبدية سرمدية ، لا يقطعها الموت ، لأن الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ، إذ محلها الروح ، وإنما الموت يغير أحوالها ، أما أن يعدمها فلا .

والعارفون درجات عند الله تعالى متفاوتون ، لا يدخل تفاوت درجاتهم تحت الحصر ، وهذه الأمور لا تدرك إلا بالذوق ، والحكاية فيها قليلة الجدوى . فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله تعالى ألذ الأشياء ، وأنه لا لذة فوقها ، ولهذا قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : إن لله عباداً ليس يشغلهم عن الله عز وجل خوف النار ولا رجاء الجنة ، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله تعالى ؟ !

وقال بعض أصحاب معروف : قلت له : أي شيء أهاجك على العبادة ؟ فسكت . فقلت : ذكر الموت ؟ فقال : وأي شيء الموت ؟ قلت : ذكر القبر . وقال : وأي شيء القبر ؟ قلت : خوف النار ورجاء الجنة ؟ فقال : وأي شيء هذا ؟ إن ملكاً هذا كله بيده ، إن أحببته أنساك جميع ذلك ، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع ذلك .

وقال أحمد بن الفتح : رأيت بشر بن الحارث في منامي ، فقلت له : ما فعل معروف الكرخي ؟ فحرك رأسه ثم قال : هيهات ، حالت بيننا وبينه الحجب ، إن معروفاً لم يعبد الله شوقاً الى جنته ولا خوفاً من ناره ، وانما عبده شوقاً إليه ، ، فرفعه الله الى الرفيق الأعلى ، ورفع الحجب بينه وبينه .

فمتى حصلت محبة الله تعالى لشخص ، صار قلبه مستغرقاً بها ، ولا يلتفت الى جنة ، ولا يخاف من نار ، فإنه قد بلغ النعيم الذي ليس فوقه نعيم . قال بعضهم :

وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وإنما أراد بهذا لذة القلب في معرفة الله تعالى . وأنها مفضلة على لذة الأكل والشرب والنكاح ، فإن الجنة معدن تمتع الحواس ، وأما القلب فلذته في لقاء الله تعالى فقط .

واعلم : أن لذة النظر في الآخرة تزيد على المعرفة في الدنيا ، وقد اقتضت سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ، ومقتضى الشهوات ، وما يغلب عليها من الصفات البشرية ، لا تنتهي الى المشاهدة ، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة ، كحجاب الأجفان عن رؤية الإبصار .

والقول في سبب كونه حجابا يطول ، فإذا ارتفع الحجاب بالموت ، بقيت النفس وفيها نوع تلوث بالدنيا ، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وقد صفوا عن الأكدار ، تجلّى لهم الحق سبحانه وتعالى على قدر معرفتهم في الدنيا .

فكل من لا يعرف الله تعالى في الدنيا ، لا يراه في الآخرة . وما يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه ، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء ، فتضاعف اللذة ، والعيش عيش الآخرة . ﴿وإنَّ الدَّارَ الآخرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ﴾[العنكبوت : ٦٤] .

وعيش الآخرة بقدر المعرفة ، ولهذا جاء في الحديث : « خير الناس من طال عمره وحسن عمله » وذلك لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والذكر ، والمواظبة على المجاهدة ، والانقطاع عن علائق الدنيا ، والتجرد للطلب ، فقد عرفت بما ذكرنا معنى المحبة ، ومعنى لذة المعرفة ، ومعنى الرؤية ولذتها ، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند أهل الكمال .

فصل في بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى وتفاوت الناس في الحب

وبيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى

واعلم : أن أسعد الناس وأحسنهم حالاً في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى ، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ، ودرك سعادة لقائه . وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه ، وتمكن من مشاهدته من غير منغص ولا مكدر ، إلا أن هذا النعيم على قدر المحبة ، فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة .

وأصل الحب لا ينفك عن مؤمن ، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة ، وأما قوة الحب واستيلاؤه ، فذلك ينفك عنه الأكثرون ، وإنما يحصل ذلك بشيئين :

أحدهما : قطع علائق الدنيا ، وإخراج حب غير الله من القلب ، فأحد أسباب ضعف حبه ، قوة حب الدنيا ، وبقدر ما يأنس القلب بالدنيا ينقص أنسه بالله ، والدنيا

والآخرة ضرتان ، وسبيل قطع الدنيا عن القلب سلوك طريق الزهد ، وملازمة الصبر ، والانقياد اليهما بزمام الخوف والرخاء ، وما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والشكر والزهد والخوف وغير ذلك .

السبب الثاني لقوة المحبة : معرفة الله تعالى ، فإذا حصلت المعرفة تبعتها المحبة ، ولا يوصل الى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا الفكر الصافي ، والذكر الدائم ، والتشمير في الطلب ، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه : وأقل أفعاله الأرض وما عليها ، بالإضافة الى الملائكة وملكوت السموات .

والشمس على ما يرى من صغر حجمها مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة ، فانظر الى صغر الأرض بالإضافة إليها ، ثم انظر الى صغر الشمس بالإضافة الى فلكها الذي هي مركوزة فيه وهي في السماء الرابعة[1] والسماء الرابعة صغيرة بالنسبة الى ما فوقها من السموات ، ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة ، والكرسي في العرش كذلك .

ثم انظر الى الآدمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض ، والى سائر الحيوانات ، والى صغره بالإضافة الى الأرض ، وأصغر ما تعرفه من الحيوانات البعوض ، فانظر فيه بعقل حاضر ، كيف خلقه الله عز وجل على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات ، وزاده الجناحين ، وانظر كيف شق سمعه وبصره ، وخلق في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ، ودبره في سائر أحواله ، من القوى الجاذبة والدافعة والهاضمة ، وانظر كيف خلق له الطيران ، يطير إذا طُلب ، وجعل له خرطوماً محدداً يمص به الدم .

وانظر الى النحل في تناولها الأزهار من الأنوار ، واحترازها عن الأقذار ، وطاعتها الى كبيرها ، حتى إنه يقتل كل ما ورد عليه وقد أكل مستقذراً ، والى اختيارها الشكل المسدس ، فلا تبني بيتاً مربعاً ، ولا مستديراً ، ولا مخمساً ، بل مسدساً لخاصيته في الشكل المسدس ، فإن أوسع الأشكال وأحواها المستدير وما يقرب منه ، فإن المربع تخرج منه الزوايا ضائعة ، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فُرَج ضائعة ، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة ، فلا شكل في الأشكال ذوات الزوايا

---

(١) لم يثبت في هذا خبر تصح نسبته الى النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما هو ضرب من الاجتهاد الانساني الذي يخضع للمقاييس العلمية الدقيقة ، ويحكم عليها بموجبها من صواب أو خطأ .

يقرب في الاحتواء من المستدير ، ثم تتراص الجملة منه ، بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة الى المسدس ، فانظر كيف ألهمه الله تعالى ذلك على صغر حجمه وضعفه ، فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ، فالنظر في هذا وأشباهه تزداد المعرفة به ، فتزداد المحبة .

وأما السبب في تفاوت الناس في الحب .

فاعلم أن الناس مشتركون في أصل الحب ، لكنهم يتفاوتون لتفاوت المعرفة ، فكثير من الناس ليس لهم من معرفة الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت أسماعهم ، والعالم البصير يطالع تفصيل صنع الله تعالى حتى يرى ما يبهر عقله ، فتزداد عظمة الله في قلبه ، فيزداد حباً له ، وتجر هذه المعرفة التي هي معرفة عجائب صنع الله تعالى الى بحر لا ساحل له .

وأما السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى ، فاعلم أن كل من صنع شيئاً دل المصنوع على وجود صانعه ، وعلى علمه وحياته وقدرته دلالة جلية ظاهرة ، وإن كانت هذه الصفات لا تدرك بشيء من الحواس الخمس . فوجود الله سبحانه وتعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهد من حجر وشجر ومدر ونبات وحيوان وأرض وسماء وكوكب وبر وبحر ، بل أول شاهد علينا أنفسنا وأجسامنا ، وتقلب أحوالنا ، وتغير قلوبنا ، وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا .

وجميع ما في العالم شواهد ناطقة ، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ، ودالة على علمه وقدرته وحياته ولطفه وحكمته وعظمته وجلاله ، إذ كل ذرة تنادي بلسان حالها : إنه ليس وجودها بنفسها ، وإنها تحتاج الى موجد لها ، لكن عقولنا بالنسبة الى ادراك الحضرة الإلهية ، كالخفاش بالنسبة الى النهار ، فإنه لضعف بصره يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، وليس عدم إبصاره بالنهار لخفائه ، بل لشدة ظهوره واستنارته وضعف أعين الخفاش ، فكذلك عقولنا ضعيفة عن إدراك الحضرة الإلهية ، فسبحان من احتجب باشراق نوره ، واختفى به عن البصائر والأبصار ، فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله سبحانه وتعالى ، وانضم الى ذلك أيضاً أن المدركات الشاهدة لله تعالى ، إنما يدركها الإنسان في حال الصبا قبل حضور العقل عنده ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلاً ، وهو مستغرق الهم ، مشغول به ، وقد أنس بمدركاته وألفها ، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس .

وكذلك إذا رأى فجأة حيواناً غريباً ، أو نباتاً ، أو فعلاً من أفعال الله تعالى عجيباً خارقاً للعادة ، انطلق لسانه بالتعجب ، فقال : سبحان الله ! سبحان الله ! وهو يرى طول النهار نفسه ، وجميع أعضائه ، وجميع الحيوانات المألوفة ، وكلها شواهد قاطعة ، فلا يحس بشهادتها لطول الأنس بها .

ولو فرض أن أعمى بلغ عاقلاً ، ثم انقشعت غشاوة عينه ، فامتد بصره الى السماء والأرض ، والأشجار ، والنبات ، والحيوان دفعة واحدة ، لخيف على عقله أن ينبهر ، لعظم تعجبه من مشاهدة هذه العجائب ، وشهادتها لخالقها ، فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات ، وهو الذي سد على الخلق في سبيل الاستضاءة بنور المعرفة ، والسباحة في بحارها الواسعة ، والله أعلم وأحكم .

فصل في بيان معنى الشوق الى الله تعالى

قد تقدم الكلام في المحبة وإثباتها بالأدلة ، وأن الشوق ثمرة من ثمارها ، فإن من أحب شيئاً اشتاق إليه .

واعلم : أن الشوق لا يتصور إلا لشيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه .

فأما ما لا يدرك أصلاً ، فلا يشتاق إليه ، وكمال الإدراك بالرؤية ، وإنما يكون ذلك في الآخرة .

واعلم : أن الأمور الإلهية لا نهاية لها ، وإنما يكشف لكل عبد من العباد بعضها ، ويبقى أمور لا نهاية لها ، والعارف يعلم وجودها ، وكونها معلومة لله تعالى ، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر ، فلا يزال العبد متشوقاً الى أن يحصل له أصل المعرفة ، وينتهي الشوق الأول في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ومشاهدة ، ولا يتصور أن يسكن قلب المشتاق في الدنيا .

وكان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين ، فقال يوماً : يا ربِّ ! إن كنت أعطيت أحداً من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني ، فقد أضر بي القلق . قال : فرأيته عز وجل في النوم ، فقال : يا إبراهيم ! أما استحييت مني ؟ ! تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي ، وهل يسكن قلب المشتاق قبل لقاء حبيبه ؟ فقلت : يا رب : تُهْتُ في حبك فلم أدر ما أقول ، فهذا الشوق يسكن في الآخرة . وأما غير ذلك مما هو

معلوم لله فلا نهاية له ، فلا يتضح للعبد ولا يحيط به ، فهو مشغول بلذة ما ظهر له ، ولا يزال النعيم واللذة متزايدين حتى يشتغل عن الإحساس بالشوق الى ما وراء ذلك ، فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه .

ومن شواهد الأخبار ، ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علم رجلاً دعاء ، وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم ، فذكر فيه : « أسألك اللهم الرضى بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر الى وجهك ، وشوقاً الى لقائك » .

وفي التوراة : يقول الله تعالى : طال شوق الأبرار الى لقائي ، وأنا الى لقائهم أشد شوقاً .

وفي بعض ما أوحى الله عز وجل الى بعض عباده : إن لي عباداً من عبادي ، يحبوني وأحبهم ، وأشتاق إليهم ويشتاقون اليّ ، ويذكروني وأذكرهم ، فان حذوت طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتك . قال : يا رب ! وما علامتهم ؟ قال : يرعون الظلال بالنهار ، كما يرعى الراعي الشفيق غنمه ؟ ويحنون الى غروب الشمس كما تحن الطير الى أوكارها عند الغروب ، فإذا جنهم الليل ، واختلط الظلام ، وفرشت الفرش ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، نصبوا أقدامهم ، وافترشوا وجوههم ، وناجوني بكلامي ، وتملقوني بانعامي ، فبين صارخ وباك ، وبين متأوه وشاك ، وبين قائم وقاعد ، وبين راكع وساجد ، بعيني ما يتحملون من أجلي ، وبسمعي ما يشكون من حبي .

فصل في بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها وبيان علامات محبة العبد لله تعالى

وأما محبة الله تعالى للعبد ، فاعلم :

أن شواهد القرآن متظاهرة على ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ ، الآية [الصف : ٤] . ونبه على أنه لا يعذب من يحبه ، لأنه رد على من ادعى أنه حبيبه بقوله : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [المائدة : ١٨] وشرط للمحبة غفران الذنوب فقال : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

وفي الحديث الصحيح ، من رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله تعالى يقول : « ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه » ، إلى آخره . وهو حديث مشهور .

ومن علامة حب الله تعالى للعبد ، قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه »[1] .

ومن أقوى العلامات ، حسن التدبير له ، يربيه من الطفولة على أحسن نظام ، ويكتب الإيمان في قلبه ، وينور له عقله ، فيتبع كل ما يقربه ، وينفر عن كل ما يبعد عنه ، ثم يتولاه بتيسير أموره ، من غير ذل للخلق ، ويسدد ظاهره وباطنه ، ويجعل همه هماً واحداً ، فإذا زادت المحبة ، شغله به عن كل شيء .

وأما محبة العبد لله تعالى ، فاعلم :

أن المحبة يدعيها كل أحد ، فما أسهل الدعوى وأعز المعنى ، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان ، وخداع النفس إذا ادعت محبة الله تعالى ، ما لم يمتحنها بالعلامات ، ويطالبها بالبراهين ، فمن العلامات حب لقاء الله تعالى في الجنة ، فانه لا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب لقاءه ومشاهدته ، وهذا لا ينافي كراهة الموت ، فان المؤمن يكره الموت ، ولقاء الله بعد الموت .

ومن السلف من أحب الموت ، ومنهم من كرهه ، إما لضعف محبته ، أو لكونها مشوبة بحب شيء من الدنيا ، أو لأنه يرى ذنوبه فيحب أن يبقى ليتوب .

ومنهم من يرى نفسه في ابتداء مقام المحبة ، فيكره عجلة الموت قبل أن يستعد للقاء الله تعالى ، وهذا كمحب يصله الخبر بقدوم حبيبه عليه ، فيحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيء له داره ، ويعدل له أسبابه ، فيلقاه كما يهواه ، فارغ القلب عن الشواغل ، خفيف الظهر عن العوائق ، فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال المحبة ، وعلامةهذا : الدؤوب في العمل ، واستغراق الهم في الاستعداد .

ومنها أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه ، فيجتنب

---

(١) قطعة من حديث أخرجه الترمذي (٢٣٩٨) من حديث أنس بلفظ « إن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي ، فله الرضى ، ومن سخط فله السخط » وفي الباب عن عبد الله بن مغفل عند الطبراني والحاكم ، وعن عمار بن ياسر عند الطبراني ، وعن أبي هريرة عند ابن عدي ، فهو صحيح بها .

اتباع الهوى ، ويعرض عن دعة الكسل ، ولا يزال مواظباً على طاعة الله تعالى متقرباً إليه بالنوافل .

ومن أحب الله فلا يعصيه ، إلا أن العصيان لا ينافي أصل المحبة ، إنما يضاد كمالها ، فكم من إنسان يحب الصحة ويأكل ما يضره ، وسببه أن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب ، فيعجز عن القيام بحق المحبة ، ويدل على ذلك حديث نعيمان أنه كان يؤتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيحده[1] إلى أن أتى به يوماً ، فحده ، فلعنه رجل وقال : ما أكثر ما يؤتى به ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تلعنه ، فانه يحب الله ورسوله » فلم تخرجه المعصية عن المحبة ، وإنما تخرجه عن كمال المحبة .

ومن العلامات أن يكون مُسْتَهْتراً بذكر الله تعالى ، لا يفتر عنه لسانه ، ولا يخلو عنه قلبه ، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره بالضرورة ، ومن ذكر ما يتعلق به .

فعلامة حب الله تعالى حب ذكره ، وحب القرآن الذي هو كلامه ، وحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

قال الله تعالى :﴿ قُلْ إِن كُنْتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم) [آل عمران : ٣١] .

وقال بعض السلف : كنت قد وجدت حلاوة المناجاة ، فكنت أدمن قراءة القرآن ، ثم لحقتني فترة فانقطعت ، فرأيت في المنام قائلاً يقول :

إن كنت تزعمُ حبي ... فَلِمْ هجرتَ كتابي
أما تدبرت ما فيـ ... ـه من لطيف عتابي

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ، ومناجاة الله تعالى ، وتلاوة كتابه ، فيواظب على التهجد ، ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق ، فان أقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب ، والتنعم بمناجاته .

روي أن عابداً عبد الله في غيضة دهراً ، فنظر إلى طائر قد عشش في شجرة يأوي إليها ، ويصفر عندها . فقال : لو حولت مسجدي إلى تلك الشجرة كنت آنس بصوت

---

(١) أي يقيم عليه الحد وهو نعيمان بن عمرو بن رفاعة ، وكان كثير المزح .

هذا الطائر ، ففعل ، فأوحى الله تعالى الى نبيهم : قل لفلان العابد : استأنست بمخلوق ، لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً .

فإذن علامة المحبة ، كمال الأنس بمناجاة المحبوب ، وكمال التنعم بالخلوة ، وكمال الاستيحاش من كل ما ينقض عليه الخلوة .

ومتى غلب الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عين تدفع جميع الهموم ، بل يستغرق الحب والأنس قلبه ، حتى لا يفهم أمور الدنيا ، ما لم تتكرر على سمعه مراراً ، مثل العاشق الولهان .

ومنها أن يتأسف على ما يفوته من ذكر الله تعالى ، ويتنعم بالطاعة ، لا يستثقلها ، ويسقط عنه تعبها .

قال ثابت البناني رحمه الله : كابدت الصلاة عشرين سنة ، وتنعمت بها عشرين سنة .

وقال الجنيد : علامة المحبة دوام النشاط ، والدؤوب بشهوة يفتر بدنه ولا يفتر قلبه ، وكل هذا موجود المثال في المشاهدات ، فإن المحب لا يستثقل السعي في مراد محبوبه ، ويستلذ خدمته بقلبه ، وإن كان شاقاً على بدنه ، وكل حب قاهر لا محالة ، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ، ترك الكسل في خدمته ، وإن كان أحب إليه من المال ، ترك المال في حبه .

ومنها أن يكون شفيقاً على جميع عباد الله ، رحيما بهم ، شديداً على أعدائه ، كما قال تعالى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم ﴾ [الفتح : ٢٩] ولا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يصرفه عن الغضب له صارف ، فهذه علامات المحبة ، فمن اجتمعت فيه فقد تمت محبته ، وصفا في الآخرة شرابه . ومن امتزج بحبه حب غير الله ، تنعم في الآخرة بقدر حبه ، فيمزج شرابه بشيء من شراب المقربين ، كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ يُسْقَوْنَ من رَحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ من تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين : ٢٢ ـ ٢٨] فقوبل الخالص بالصرف ، والمشوب بالمشوب . ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾]الزلزال : ٧ ـ ٨] .

ومنها أن يكون في حبه خائفاً بين الهيبة والتعظيم ، فإن الخوف لا يضاد المحبة ، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم ، وبعضها أشد من بعض ، فأولها خوف الإعراض ، وأشد منه خوف الحجاب ، وأشد منه خوف الإبعاد .

ومنها كتمان الحب ، واجتناب الدعوى ، والتوقي من إظهار الوجد والمحبة ، تعظيماً للمحبوب ، وإجلالاً له ، وهيبة وغيرة على سره ، فإن الحب سر من أسرار الحبيب . وقد يقع المحب في دهش وسكر ، فيظهر عليه الحب من غير قصد ، فهو في ذلك معذور ، كما قال بعضهم .

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره في جفنه كيف يكتم

فصل في بيان معنى الأنس بالله والرضى بقضاء الله عز وجل

اعلم : أن من غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة ، لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غيره ، ويكون أثقل الأشياء على القلب كل ما يعوق عن الخلوة .

قال عبد الواحد بن زيد : قلت لراهب : لقد أعجبتك الخلوة ، فقال : لو ذقتَ حلاوة الخلوة لاستوحشت إليها من نفسك ، قلت : متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى ؟ قال : إذا صفا الود ، خلصت المعاملة . قلت : متى يصفو الود ؟ قال : إذا اجتمع الهم ، فصار هماً واحداً في الطاعة .

فإن قيل : ما علامة الأنس ؟ قيل : علامته الخاصة ضيق الصدر عن معاشرة الخلق ، والتبرم بهم ، وإن خالط ، فهو كمنفرد غائب مخالط بالبدن ، منفرد بالقلب .

واعلم : أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ، قد يثمر نوعاً من الانبساط والإدلال ، وقد يكون ذلك منكراً في الصورة ، لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ، وإن كان محتملاً ممن أقيم مقام الأنس . وأما إذا صدر ممن لا يفهم ذلك المقام ، أشرف به على صاحبه على الكفر ، وذلك كما يروى عن أبي حفص أنه كان يمشي يوماً ، فاستقبله رجل مدهوش[1] ، فقال : مالك ؟ قال : ضل حماري ، ولا أملك غيره ، فوقف

---

(١) أي : متحير ، من دهش الرجل يدهش : إذا تحير .

أبو حفص وقال : وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حماره ، فظهر الحمار .

وروي عن برخ العابد أنه خرج يستسقي فقال : يا رب : أنت بالبخل لا ترمى ، أنفذ ما عندك ، اسقنا الساعة .

ولا يستبعد أن يحتمل من شخص ما لم يحتمل من غيره . وأما الرضى بقضاء الله تعالى ، فهو من أعلى مقامات المقربين ، وهو من ثمار المحبة ، وحقيقته غامضة ، ولا ينكشف الأمر فيه إلا لمن يفهمه عن الله تعالى .

ومن فضائل الرضى ما ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إذا أراد الله بعبد خيراً أرضاه بما قسم له » .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود : إنك لن تلقاني بعمل هو أرضى لي عنك ، ولا أحطلوزرك ،من الرضى بقضائي .

ونظر علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى عدي بن حاتم كئيباً ، فقال : يا عدي : ما لي أراك كئيباً حزيناً ؟ فقال : وما يمنعني فقد قتل ابناي ، وفقئت عيني فقال: يا عدي ! من رضي بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر ، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله .

ودخل أبو الدرداء رضي الله عنه على رجل وهو يموت وهو يحمد الله تعالى ، فقال أبو الدرداء : أصبت ، إن الله عز وجل إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : إن الله تعالى بقسطه وعمله جعل الرَّوح والفرح في اليقين والرضى ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط .

وقال علقمة في قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾[التغابن : ١١] قال : هي المصيبة تصيب الرجل ، فيعلم أنها من عند الله ، فيسلم لها ويرضى .

وقال أبو معاوية الأسود في قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[النحل : ٩٧] قال : الرضى والقناعة .

وفي الأخبار السالفة[1]: أن نبياً من الأنبياء شكا إلى ربه عز وجل الجوع والفقر عشر سنين ، فما أجيب إلى ما أراد ، ثم أوحى الله إليه : كم تشكو ؟ هكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض ، وهكذا سبق لك مني ، وهكذا قضيت

(١) في الأصول : وفي الحديث .

عليك قبل أن أخلق الدنيا ، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك ؟ أم تريد أن أبدل ما قدرت لك ؟ فيكون ما تحب فوق ما أحب ، ويكون ما تريد فوق ما أريد ، وعزتي وجلالي ، لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأمحونَّك من ديوان النبوة .

وفي « زبور داود » عليه السلام : هل تدري من أسرع الناس مراً على الصراط ؟ الذين يرضون بحكمي وألسنتهم رطبة من ذكري .

وقال داود عليه السلام : يا رب! أيُّ عبادك أبغض إليك ؟ قال : عبد استخارني في أمر ، فخرت له ، فلم يرض .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر .
وقيل له : ما تشتهي ؟ فقال : ما يقضي الله عز وجل .

وقال الحسن : من رضي بما قسم له ، وسعه ، وبارك الله فيه ، ومن لم يرض لم يسعه ، ولم يبارك له فيه .

وقال عبد الواحد بن زيد : الرضى باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العابدين .

وقال بعضهم : لن يرد الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله تعالى على كل حال ، فمن وهب له الرضى ، فقد بلغ أفضل الدرجات .

وأصبح أعرابي وقد مات له أباعر كثيرة ، فقال :

لا والذي أنا عبد في عبادته ... لولا شماتة أعداء ذوي إحن
ما سرني أن إبلي في مباركها ... وأن شيئاً قضاه الله لم يكن

فصل [يتصور الرضى فيما يخالف الهوى]

ويتصور الرضى فيما يخالف الهوى . وبيان ذلك إذا جرى على الإنسان الألم ، فتارة يحس به ويدرك ألمه ، ولكنه يكون راضياً به ، راغباً في زيادته بعقله ، وإن كان كارهاً له بطبعه لما يوصله من الثواب . مثاله أن يلتمس من الحجام الحجامة والفصد ، فإنه يدرك ألم ذلك ، إلا أنه راضٍ به ، وراغب فيه ومتقلد منة الحجام .

وكذلك كل من يسافر في طلب الربح ، فانه يدرك مشقة السفر ، لكن حبه لثمرة سفره طيب عنده تلك المشقة ، وجعله راضياً بها ، وكل من أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين ، فانه يتوقع الأجر فوق ما فاته ، فيرضى بما أصابه ، ويشكر الله تعالى عليه ، ويجوز أن يغلبه الحب ، بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ، ويبطل الإحساس بالألم لفرط الحب ، وليس ذلك بعجيب ، فان الرجل المحارب في حال غضبه أو خوفه ، تصيبه الجراحات ولا يحس بها ، ولا يشعر بها في تلك الحال ، وذلك لأن قلبه مستغرق ، وإذا كان القلب مستغرقاً بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه ، وذلك موجود في المشاهدات .

قال الجنيد رحمه الله : سألت سرياً : هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال : لا .

وقد روينا عن خلق كثير من أهل البلاء ، أنهم كانوا يقولون : لو قطعنا إرباً إرباً ، ما ازددنا له إلا حباً .

وقد تقدم أن فرط الحب يزيل إحساس الألم ، وهو متصور في حب الخلق ، كما حكى بعضهم . قال : كان في جيراننا رجل له جارية يحبها ، فاعتلت ، فجلس يصلح لها حَسَاءً[1] ، فبينما هو يحرك القدر ، قالت : أوه ، فدهش وسقطت الملعقة من يده ، وجعل يحرك القدر بيده حتى تساقطت أصابعه وهو لا يعلم . ويؤيد هذا قصة النسوة حين شاهدن يوسف عليه السلام ، فانهن قطعن الأيدي ، وما أحسسن بألم ، فقد بان بما ذكرنا أن الرضى بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً ، وإذا كان ذلك ممكناً في حق الخلق وحظوظهم ، كان ممكنا في حق الله سبحانه ، وحظوظ الآخرة بطريق الأولى . وإمكان ذلك في ثلاثة أوجه :

احدها : علم المؤمن بأن تدبير الله تعالى خير من تدبيره .

وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ما قضى الله لمؤمن من قضاء إلا كان خيراً له » .

وعن مكحول قال : سمعت ابن عمر رضي الله عنه يقول : إن الرجل يستخير الله فيختار له ، فيسخط فلا يلبث أن ينظر في العاقبة ، فاذا هو قد خير له .

---

(١) بالفتح والمد : طعام يتخذ من دقيق وماء ودهن ، وقد يحلى ويكون رقيقاً يحسى .

وعن مسروق قال : كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك ، فالديك يوقظ للصلاة ، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل خباءهم ، والكلب يحرسهم . فجاء الثعلب فأخذ الديك ، فحزنوا ، فقال الرجل : عسى أن يكون خيراً ، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار ، فحزنوا ، فقال ، الرجل : عسى أن يكون خيراً ، ثم أصيب الكلب ،فحزنوا، فقال الرجل : عسى أن يكون خيراً ، ثم أصبحوا ذات يوم ، فنظروا فاذا قد سبي من حولهم وبَقُوا هُمْ ، وإنما أخذ أولئك بما كان عندهم من الصوت والجلبة ، ولم يكن عند أولئك شيء يجلب ، قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم .

وعن سعيد بن المسيب قال : قال لقمان لابنه : يا بني : لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته ، إلا جعلت في الضمير أن ذلك خير لك . قال : أما هذه فلا أقدر أن أعطيكها دون أن أعلم ما قلت أنه كما قلت . قال : يا بني : فإن الله قد بعث نبياً هلم حتى نأتيه ، فعنده بيان ما قلت لك . قال : اذهب بنا إليه ، فخرج على حمار وابنه على حمار ، وتزودوا ما يصلحهما ، ثم سارا أياماً وليالي ، حتى تلقتهما مفازة ، فأخذا أهبتهما ودخلاها ، فسارا ما شاء الله أن يسيرا ، حتى تعالى النهار واشتد الحر ونفد الماء والزاد ، فاستبطآ حماريهما ، فنزلا يمشيان ، فبينما هما كذلك ، إذ نظر لقمان أمامه ، فإذا هو بسواد ودخان ، فقال في نفسه : السواد شجر ، والدخان عمران وناس ، فبينما هما كذلك يشهدان ، إذ وطىء ابن لقمان على عظم على الطريق ، فدخل في باطن قدمه حتى ظهر من أعلاها ، فخر مغشياً عليه ، فحانت من لقمان التفاتة ، فإذا هو بابنه صريع ، فوثب إليه فضمه الى صدره ، واستخرج العظم بأسنانه ، وشق عمامة كانت عليه فعصب رجله ، ثم نظر الى وجه ابنه فذرفت عيناه ، فقطرت قطرة من دموعه على خد الغلام فانتبه لها ، فنظر الى أبيه يبكي ، فقال : يا أبت : أنت تبكي وأنت تقول : هذا خير لي ، فكيف ذلك وأنت تبكي ؟ ! وقد نفد الطعام والشراب وبقيت أنا وأنت في هذا المكان . قال : أما بكائي يا بني ، فوددت أني افتديتك بجميع حظي من الدنيا ، ولكني والد ومني رقة الوالد . وأما قولك : كيف يكون هذا خيراً لي ؟ فلعل ما صرف عنك أعظم مما ابتليت به ، ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك ، فبينما هو يحاوره ، إذ نظر لقمان أمامه ، فلم ير الدخان والسواد ، فقال في نفسه : لم أر شيئاً ، ثم قال : قد رأيت ، ولكن لعله أن يكون قد أحدث ربي بما رأيت شيئاً ، فبينما هو يتفكر في ذلك ، إذ نظر فإذا هو بشخص قد أقبل على فرس أبلق ، عليه ثياب بيض ، يمسح الهواء مسحاً . فلم يزل يرمقه بعينيه حتى كان منه قريباً ، فتوارى عنه ثم صاح به

فقال : أنت لقمان ؟ قال : نعم . قال : ما قال لك ابنك هذا السفيه ؟قال : يا عبدالله من أنت ؟ ، ماأسمع كلامك ولا أرى وجهك ؟ قال : أنا جبريل ، لا يراني إلا ملك مقرَّب ، أو نبي مرسل ، لولا ذلك لرأيتني ، فما قال لك ابنك هذا السفيه ؟ قال : أما علمت ذلك ؟ فقال جبريل : ما لي بشيء من أمركما علم ، إلا أن حفظتكما أتوني ، وقد أمرني ربي تعالى بخسف هذه المدينة وما فيها ومن يليها ، فأخبروني أنكما تريدان هذه المدينة ، فدعوت ربي أن يحبسكما عني بما شاء ، فحبسكما عني بما ابتلى به ابنك ، ولولا ذلك لخسف بكما مع من خسف به ، ثم مسح جبريل عليه السلام بيده على قدم الغلام ، فاستوى قائماً ، ومسح يده على الذي كان فيه الطعام فامتلأ طعاماً ، ومسح على الذي كان فيه ماء فامتلأ ماء ، ثم حملهما وحماريهما فرحل بهما كما يرحل الطير ، فإذا هما في الدار التي خرجا منها بعد أيام وليالي .

الوجه الثاني : الرضى بالألم ، لما يتوقع من الثواب المدخر ، كما تقدم من الرضى بالفصد والحجامة وشرب الأدوية انتظاراً للشفاء .

الوجه الثالث : الرضى به لاالخط وراءه ، بل لكونه مراد المحبوب ، فيكون ألذ الأشياء عنده ما فيه رضى محبوبه ، ولو كان في ذلك هلاك نفسه ، كما قال بعضهم : فما لجرح إذا أرضاكم ألم .

وقد سبق أن الحب يستولي بحيث يدهش عن إدراك الألم ، ولا ينبغي أن ينكر ذلك من فقده من نفسه ، لأنه إنما فقده لفقد سببه ، وهو فرط حبه ، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه ، ولعمري إن من فقد السمع أنكر لذة الألحان والنغمات ، فمن فقد القلب ، فلا بد أن ينكر هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب .

فصل [في أن الدعاء لا يناقض الرضى]

واعلم : أن الدعاء لا يناقض الرضى ، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها وأسبابها ، والسعي في إزالتها .

أما الدعاء ، فقد تعبدنا الله تعالى به ، وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾[الأنبياء : ٩٠] ودعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وغيره

من الأنبياء والصالحين معلوم .

وأما إنكار المعاصي وعدم الرضى بها ، فقد تعبدنا الله تعالى به ، وذم الراضي به ، وكذلك بغض الكفار والفجار ، والإنكار عليهم ، وشواهد ذلك في القرآن والأخبار كثيرة جداً .

فإن قيل : فقد وردت الأخبار بالرضى بقضاء الله تعالى ، فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى ، فهو محال ، وإن كانت بقضائه ، فكراهتها كراهة لقضائه ، فكيف الجمع بين هذين الحالين .

فاعلم أن هذا مما يلتبس على القاصرين على الوقوف على أسرار العلم ، حتى التبس على قوم ، فرأوا السكوت عن الإنكار مقاماً من مقامات الرضى ، وسموه حسن الخلق ، وهو جهل محض ، بل نقول : الرضى والكراهة يتضادان ، إذا تواردا على شيء واحد ، من جهة واحدة ، على وجه واحد . فأما إذا رضيت بشيء من وجه ، وكرهته من وجه آخر ، فليس ذلك بمتضاد ، نحو أن يموت عدوك الذي هو أيضاً عدو لبعض أعدائك ، وساع في إهلاكه ، فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك ، وترضاه من حيث إنه عدوك ، وكذلك للمعصية وجهان : وجه إلى الله تعالى ، من حيث إنها اختياره وإرادته ، فترضى بها من هذا الوجه تسليماً للملك الى مالك الملك ، ووجه الى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة لكونه ممقوتاً عند الله تعالى وبغيضاً عنده ، حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ، ولا ينكشف هذا إلا بمثال ، فلنفرض محبوباً من الخلق قال بين يدي محبه : إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني ، وأنصب لذلك معياراً صادقاً ، وهو أني أقصد الى فلان فأضربه ضرباً شديداً يضطره ذلك الى الشتم لي ، حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدواً ، فكل من أحبه علمت أنه أيضاً عدو لي ، وكل من أبغضه علمت أنه محبي وصديقي ، ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض ، وحصل البغض الذي هو سبب العداوة ، فحق على كل من هو صادق في محبته أن يقول : أما تدبيرك في ضرب هذا الشخص وأذاه ، فأنا محب له ، فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك ، وأما شتمه إياك من حيث نسبته الى هذا الشخص ، فإنه عدوان منه وتهجم عليك ، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ، فكذلك تسليط الله سبحانه وتعالى دواعي الشهوة والمعاصي على العبد ، وبغضه على عصيانه .

فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله عز وجل ، ويعادي من عاداه وأبعده عن حضرته ، وإن اضطره بقهره وقدرته الى معاداته ومخالفته ، فإنه بعيد مطرود ، والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون بغيضاً الى جميع المحبين ، موافقة لمحبوبهم ، بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده .

وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله ، والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم ، والمبالغة في مقتهم ، مع الرضى بقضاء الله تعالى ، من حيث إنه قضاؤه ، وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في إفشائه ، وهو أن الخير والشر كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه ، والخير مراد مرضي به .

والأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع ، والوقوف مع ما تعبد به الخلق ، من الجمع بين الرضى بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي ، والله تعالى أعلم .

ومما يتعلق بالمحبة .

قيل : أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام : لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ، ورفقي بهم ، وشوقي الى ترك معاصيهم ، لماتوا شوقاً إليَّ ، وتقطعت أوصالهم من محبتي .

يا داود : هذه إرادتي في المدبرين عني ، فكيف إرادتي في المقبلين عليَّ ؟

يا داود أحوج ما يكون العبد إلي إذا استغنى عني ، وأجل ما يكون عندي إذا رجع إليَّ .

وكانت امرأة متعبدة تقول : والله لقد سئمت الحياة ، حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقاً إلى الله تعالى ، وحباً للقائه . فقيل لها : فعلى ثقة أنت من عملك ؟ قالت : لا ، ولكني لحبي إياه وحسن ظني به ، أفتراه يعذبني وأنا أحبه ؟

* * *

باب في النية والاخلاص والصدق

اعلم : أنه قد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أنه لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة .

فالناس كلهم هلكى ، إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم[1].

فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير إخلاص رياء ، والإخلاص من غير تحقيق هباء . قال الله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا من عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] . وليتْ شعري ، كيف تصلح نية من لا يعرف حقيقة النية ؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ؟ ! أو كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه ؟

فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى ، أن يعلم النية أولاً ، لتحصل له المعرفة ، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللّذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة . ونحن نذكر ذلك في ثلاثة فصول :

الفصل الأول

في النية وحقيقتها وفضلها وما يتعلق بذلك

قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام : ٥٢] والمراد بالإرادة : النية .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنية ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وعن أبي موسى قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حميّةً ، ويقاتل رياءً ، أيُّ ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » . أخرجاهما في « الصحيحين » .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ، ما قطعتم وادياً ، ولا سلكتم طريقاً ، إلا شركوكم في الأجر ، حبسهم المرض » أخرجه مسلم ، وأخرجه البخاري من حديث أنس .

---

(١) انظر صفحة (٢٥٠) حول هذا الكلام .

وفي « الصحيحين » من حديث ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » .

وعن أبي كبشة الأنصاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر : رجل آتاه الله مالاً وعلماً ، فهو يعمل به في ماله ينفقه في حقه . ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً ، وهو يقول : لو كان لي مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : فهما في الأجر سواء . ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً ، فهو يخبط فيه ، ينفقه في غير حقه . ورجل لم يؤته مالاً ولا علماً ، فيقول : لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : فهما في الوزر سواء » .

وعن أبي عمران الجوني قال : تصعد الملائكة بالأعمال ، فينادي الملك : ألق تلك الصحيفة ، قال : فتقول الملائكة : ربنا قال خيراً وحفظناه عليه . فيقول تبارك وتعالى : إنه لم يرد به وجهي . قال : وينادي الملك : اكتب لفلان كذا وكذا ، مرتين . فيقول : يا رب : إنه لم يعمله ، فيقول عز وجل : إنه قد نواه .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى ، والورع عما حرم الله تعالى ، وصدق النية فيما عند الله تعالى .

وكان بعضهم يقول : دلوني على عمل لا أزال به عاملاً لله تعالى ، فقيل له : انو الخير ، فانك لا تزال عاملاً وإن لم تعمل ، فالنية تعمل وإن عدم العمل ، فانه من نوى أن يصلي بالليل فنام ، كتب له ثواب ما نوى أن يفعله .

وقد جاء في الحديث : « ما من رجل يكون له ساعة من الليل يقومها ، فينام عنها إلا كتب له أجر صلاته ، وكان نومه صدقة تصدق بها عليه » .

وقد جاء في الحديث : « نية المؤمن خير من عمله »[1] .

والنية ، والإرادة ، والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد .

واعلم أن الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : المعاصي ، فلا تتغير عن موضعها بالنية ، مثل من يبني مسجداً

---

(١) قال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » : قال البيهقي : إسناده ضعيف . وقال ابن دحية : لا يصح .

بمال حرام يقصد بذلك الخير ، فان النية لا تؤثر فيه ، فان قصد الخير بالشر شر آخر ، فان الخيرات إنما تعرف كونها خيرات بالشرع ، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً ، هيهات ! .

واعلم : أن من تقرب من السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام ، كان كتقرب علماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق ، فان هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى ، يتكالبون على الدنيا ، ويتبعون الهوى ، ووبال ذلك راجع إلى معلمهم ، إذ علم فساد نياتهم ومقاصدهم .

ومن هذا القبيل تعلم القصاص القصص ، فان مقاصد أكثرهم معروفة ، وقصدهم اجتلاب الدنيا ، وأخذ الأموال كيف اتفق ، فتعليمهم إعانة على الفساد ، فقد علمت أن الطاعة تنقلب معصية بالقصد .

وأما المعصية ، فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً بل إذا انضاف إليها قصد خبيث تضاعف وزرها وعظم وبالها .

القسم الثاني : الطاعات ، وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها ، وفي تضاعف فضلها ، أما الأصل ، فهو أن ينوي عبادة الله تعالى لا غير ، فإن نوى الرياء صارت معصية . وأما تضاعف الفضل ، فبكثرة النيات الحسنة ، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة ، فيكون له بكل نية ثواب ، إذ كل واحدة منها حسنة ، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها .

مثال ذلك القعود في المسجد ، فإنه طاعة ، ويمكن أن ينوي بها نيات كثيرة : منها أن ينوي بدخوله انتظار الصلاة ، ومنها الاعتكاف وكف الجوارح ، فإن الاعتكاف كف ، ومنها دفع الشواغل الصارفة عن الله تعالى بالانقطاع إلى المسجد ، وإلى ذكر الله تعالى فيه ، ونحو ذلك ، فهذا طريق تكثير النيات ، فقس على ذلك سائر الطاعات ، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة .

القسم الثالث : المباحات ، فما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات ، تصير بها قربات ، وينال بها معالي الدرجات ، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة .

ولا ينبغي أن يحتقر العبد الخطرات واللحظات ، فكل ذلك يسأل عنه في القيامة ،

لم فعله ؟ وما الذي قصد به ؟

مثال ما ينوي به القربة من المباحات أن يتطيب ، وينوي بالطيب اتباع السنة ، واحترام المسجد ، ودفع الروائح الكريهة التي تؤذي مخالطيه .

وقال الشافعي رحمه الله : من طاب ريحه زاد عقله .

وكذلك معالجة رأسه تزيد فطنته وذكاءه ، فيسهل عليه إدراك مهمات دينه .

وقال بعض السلف : إني لاستحب أن يكون لي في كل شيء نية ، حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي الخلاء ، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى ، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الدين ، فمن قصد من الأكل التقوي على العبادة ، ومن النكاح تحصين دينه ، وتطييب قلب أهله ، والتوصل إلى ولد يعبد الله بعده ، أثيب على ذلك كله ، ولا تحتقر شيئاً من حركاتك وكلماتك ، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب ، وصحح قبل أن تفعل ما تفعله ، وانظر في نيتك فيما تتركه أيضاً .

واعلم : أن النية هي انبعاث النفس وميلها إلى ما ظهر لها أنه مصلحة لها ، إما في الحال أو المآل ، وربما سمع بعض الجهال ما أوصينا به من تحسين النية ، فقال عند أكله : نويت أن آكل لله ، أو عند قراءته : نويت أن أقرأ لله ، وظن أن ذلك نية ، وليس كذلك ،إنما النية انبعاث القلب ، وتجري مجرى الفتوح من الله تعالى ، وليست النية داخلة تحت الاختيار ، فقد تتيسر في بعض الأوقات ، وقد تتعذر ، وإنما تتيسر له في الغالب لمن قلبه يميل الى الدين دون الدنيا .

والناس في النيات على أقسام :

منهم من يكون عمله للطاعة إجابة لباعث الخوف .

ومنهم من يكون عمله إجابة لباعث الرجاء . وثمة مقام أرفع من هذين ، وهو أن يعمل الطاعة على نية جلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية ، وهذه لا تتيسر لراغب في الدنيا ، وهي أعز النيات وأعلاها ، وقليل من يفهمها ، فضلاً عن أن يتعاطاها ، وصاحب هذا المقام لا يجاوز ذكر الله تعالى والفكر في جلاله حباً له .

وقد حكى أحمد بن خضرويه أنه رأى رب العزة في منامه ، فقال له : كل الناس يطلبون مني ، وأبو يزيد يطلبني .

وغرضنا من هذه النيات متفاوتة في الدرجات ومن غلب على قلبه منها ، فربما لم

يتيسر له العدول الى غيرها ، ومن حضرت له نية في المباح ، ولم تحضر في فضيلة ، فالمباح أولى ، وانتقلت الفضيلة إليه .

مثال ذلك أن تحضره نية في الأكل والنوم ليتقوى بذلك على العبادة ويريح بدنه ولم تنبعث نيته في الحال الى الصلاة والصوم ، فالأكل والنوم أفضل ، بل لو ملَّ العبادة لكثرة مواظبته عليها ، وعلم أنه لو ترفه ساعة بمباح عاد نشاطه ، فذلك أفضل من التعبد حينئذ .

قال علي عليه السلام : روحوا القلوب ، واطلبوا له طُرَف الحكمة ، فإنها تمل كما تمل الأبدان .

وقال بعضهم : روحوا القلوب تعي الذكر .

وهذه دقائق لا تدركها إلا بممارسة العلماء ، فإن الحاذق في الطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ، ويستبعد ذلك القاصر في الطب ، وإنما يبتغي به أن تعود قوته ليحتمل المعالجة ، وكذلك الخبير بالقتال ، قد يفر من بين يدي قرنه حيلة منه ، ليستجره إلى مضيق . فسلوك طريق الله تعالى كله حرب مع الشيطان ، ومعالجة للقلب ، والمبصر الموفق يقف في تلك الطريق على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء ، فلا ينبغي لهم استبعاد ما خفي عليهم ، بل يسلمون لأصحاب الأحوال الى أن ينكشف لهم أسرار ذلك ، أو ينالوا ذلك المقام .

الفصل الثاني

في الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[البينة : ٤] ، وقال : ﴿ أَلاَ لِلهِ الدِّينُ الخَالِصُ ﴾[الزمر : ٣] وغير ذلك من الآيات .

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : « أخلص دينك يكفك القليل من العمل »[1] .

---

(١) ضعيف أخرجه ابن أبي الدنيا في « الإخلاص » والحاكم في « المستدرك » من حديث معاذ ، وفيه ضعف وانقطاع .

وفي حديث أنس رضي الله عنه أنه قال : « إذا كان يوم القيامة جاءت الملائكة بصحف مختمة ، فيقول الله عز وجل : القوا هذا ، واقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : وعزتك ما كتبنا إلا ما كان . فيقول : إن هذا كان لغيري ، ولا أقبل اليوم إلا ما كان لي » .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن الملائكة يرفعون عمل العبد فيكثرونه ويزكونه ، فيوحي الله تعالى اليهم : أنتم حفظة على عمل عبدي ، وأنا رقيب على ما في نفسه ، إن عبدي لم يخلص في عمله ، فاجعلوه في سجين ، ويصعدون بعمل العبد يستقلونه ، فيوحي الله إليهم : إنكم حفظة على عمل عبدي ، وأنا رقيب على ما في نفسه فضاعفوه واجعلوه في عليين » .

ويروى عن الحسن قال : كانت شجرة تعبد من دون الله ، فجاء اليها رجل فقال : لأقطعن هذه الشجرة ، فجاء اليها ليقطعها غضباً لله ، فلقيه الشيطان في صورة انسان فقال : ما تريد ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله . قال : إذا أنت لم تعبدها ، فما يضرك من عبدها ؟ قال : لأقطعنها . فقال له الشيطان : هل لك فيما هو خير لك من ذلك ، لا تقطعها ولك ديناران إذا أصبحت عند وسادتك . قال : فمن لي بذلك ؟ قال : أنا لك . فرجع فأصبح فوجد عند وسادته دينارين ، ثم أصبح بعد فلم يجد شيئاً ، فقام غضبان ليقطعها ، فتمثل له الشيطان في صورته ، فقال : ما تريد ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله . قال : كذبت ، مالك الى قطعها سبيل . فذهب ليقطعها ، فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله ، ثم قال له : أتدري من أنا ؟ فأخبره أنه الشيطان ، وقال : جئت أول مرة غضباً لله ، فلم يكن لي عليك سبيل ، فخدعتك بالدينارين فتركتها ، فلما فقدتهما جئت غضباً للدينارين ، فسلطت عليك .

وكان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول : يا نفس اخلصي وتخلصي .
وقال أبو سليمان : طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى .

وحكي أن رجلاً كان يخرج في زي النساء ، فيحضر حيث يحضرن من عرس ، أو مأتم ، فاتفق أنه حضر يوماً موضعاً فيه مجمع النساء ، فسرقت درة ، فصاحوا : أغلقوا الباب حتى نفتش ، ففتشوا واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه ، فدعا الله بالاخلاص وقال : إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا ، فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا : أطلقوا الحرة ، فقد وجدنا الدرة .

بيان حقيقة الاخلاص

اعلم : أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه ، سمي إخلاصاً .

والإخلاص يضاده الاشراك ، فمن ليس مخلصاً ، فهو مشرك ، إلا أن الشرك درجات .

فالإخلاص في التوحيد يضاده الشرك في الإلهية .

والشرك منه جلي ، ومنه خفي ، وكذلك الإخلاص ، وقد ذكرنا درجات الرياء فيما تقدم في بابه ، وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر ، إما من الرياء ، أو من غيره من حظوظ النفس .

ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب ، أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤونته وسوء خلقه ، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو للتخلص من شر يعرض له ، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابها ، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه ليراقب رحله أو أهله ، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال ، أو يشتغل بالتدريس ليفرح بلذة الكلام ، ونحو ذلك . فمتى كان باعثه التقرب إلى الله تعالى ، ولكن انضاف إليه خاطر من هذه الخواطر ، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور ، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص .

والإنسان قلما ينفك فعل من أفعاله ، وعبادة من عباداته عن شيء من هذه الأمور ، فلذلك قيل : من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى ، نجا ، وذلك لعزة الإخلاص ، وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب ، لأن الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب التقرب من الله تعالى .

قيل لسهل : أي شيء أشد على النفس ؟ قال : الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب .

واعلم : أن الشوائب المكدرة للاخلاص متفاوتة ، بعضها جلي ، وبعضها خفي ، وقد ذكرنا درجات الرياء في بابه .

ومن الرياء ما هو أخفى من دبيب النمل ، فليطلب هناك ، وحاصله أن ما دام العامل

يفرق بين مشاهدة الإنسان والبهيمة في حالة من العمل ، فهو خارج عن صفو الإخلاص ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه .

وقد قيل : ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من جاهل ، وأريد به العالم بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها ، والجاهل ينظر إلى ظاهر العبادة ، وقيراط من الذهب الذي يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر الغبي .

فصل في حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

أما العمل الذي لا يريد به إلا الرياء، فهو على صاحبه لا له، وهو سبب للعقاب، كما أن العمل الخالص لوجه الله تعالى سبب للثواب . ولا إشكال في هذين القسمين ، وإنما النظر في العمل المشوب الممتزج بشوب الرياء وحظوظ النفس .

وقد اختلف الناس في ذلك ، هل يقتضي ثواباً أو عقاباً ، أو لا يقتضي شيئاً أصلاً ؟ وليس تخلو الأخبار عن تعارض في ذلك .

والذي يتضح لنا فيه ـ والعلم عند الله تعالى ـ أن ننظر إلى قدر قوة البواعث ، فإن كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفساني تقاوما وتساقطا ، وصار العمل لا له ولا عليه ، وإن كان باعث الرياء أقوى ، ضر وأوجب العقاب ، لكن عقابه دون عقاب من تجرد للرياء ، وإن كان الباعث الديني أقوى من الآخر ، فله ثواب بقدر ما فضل من قوته ، قال الله تعالى:﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وإن تَكُ حَسَنَةً يُضاعفْها﴾[النساء : ٤٠] .

ويشهد لما ذكرنا إجماع الأمة على أن من خرج حاجاً ومعه تجارة ، صح حجه وأثيب عليه ، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس ، إلا أنه متى كان الحج هو المحرك الأصلي ، لم ينفك السفر عن ثواب . وكذلك الغازي إذا قصد الغزو والغنيمة ويكون قصد الغنيمة على سبيل التبع ، حصل له الثواب ، ولكنه لا يساوي ثواب من لا يلتفت إلى الغنيمة أصلاً ، والله تعالى أعلم .

الفصل الثالث
في الصدق وحقيقته وفضله

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً » . رواه البخاري ومسلم .

وقال بشر الحافي : من عامل الله بالصدق ، استوحش من الناس.

واعلم أن لفظ الصدق قد يستعمل في معان :

أحدها : الصدق في القول ، فحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه ، ولا يتكلم إلا بالصدق ، والصدق باللسان هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها .

وينبغي أن يحترز عن المعاريض ، فإنها تجانس الكذب إلا أن تمس الحاجة إليها ، وتقتضيها المصلحة في بعض الأحوال ، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد غزوة ورّى بغيرها لئلا ينتهي الخبر الى الأعداء فيتهيؤ وا لقتاله ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ليس بكاذب من أصلح بين اثنين فقال خيراً ، أو نمى خيراً » .

وينبغي أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه ، كقوله : وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض . فإن كان قلبه منصرفاً عن الله مشغولاً بالدنيا فهو كاذب .

الثاني : الصدق في النية والإرادة ، وذلك يرجع إلى الإخلاص ، فإن مازج عمله شوب من حظوظ النفس ، بطل صدق النية ، وصاحبه يجوز أن يكون كاذباً كما في حديث الثلاثة : العالم ، والقارىء ، والمجاهد . لما قال القارىء : قرأت القرآن الى آخره ، إنما كذبه في إرادته ونيته ، لا في نفس القراءة ، وكذلك صاحباه .

الثالث : الصدق في العزم والوفاء به .

أما الأول : فنحو أن يقول : إن آتاني الله مالاً تصدقت بجميعه ، فهذه العزيمة قد تكون صادقة ، وقد يكون فيها تردد .

وأما الثاني : فنحو أن يصدق في العزم وتسخو النفس بالوعد ، لأنه لا مشقة فيه إلا إذا تحققت الحقائق ، وانجلت العزيمة ، وغلبت الشهوة ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : ٢٣] وقال في آية أخرى : ﴿ وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة : ٧٥ ـ ٧٧] .

الرابع : الصدق في الأعمال ، وهو أن تستوي سريرته وعلانيته ، حتى لا تدل أعماله الظاهرة من الخشوع ونحوه على أمر في باطنه ، ويكون الباطن بخلاف ذلك . قال مطرف : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله عز وجل : هذا عبدي حقاً .

الخامس : الصدق في مقامات الدين ، وهو أعلى الدرجات ، كالصدق في الخوف والرجاء والزهد والرضى والحب والتوكل ، فإن هذه الأمور لها مبادىء ينطلق عليها الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق ، فالصادق المحقق من نال حقيقتها ، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقاً . قال الله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ . . ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ الذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

ولنضرب للخوف مثلاً فنقول : ما من عبد يؤمن بالله إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم وهو غير بالغ إلى درجة الحقيقة ، ألا تراه إذا خاف سلطاناً كيف يصفر ويرتعد خوفاً من وقوع المحذور ، ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند فعل المعصية . ولذلك قال عامر بن عبد قيس : عجبت للجنة نام طالبها ، وعجبت للنار نام هاربها .

والتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً ، فلا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ، ولكن لكل حظ بحسب حاله ، إما ضعيف وإما قوي ، فإذا قوي سمي صادقاً ، وإذا علم الله من عبد صدقاً صغا له ، والصادق في جميع هذه المقامات عزيز ، وقد يكون للعبد صدق في بعضها دون بعض . ومن علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً ، وكراهة اطلاع الخلق على ذلك .

باب في المحاسبة والمراقبة

قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ من خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ من سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾[آل عمران : ٣٠] ، وقال : ﴿ وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّن خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وقال : ﴿ وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾[الكهف : ٤٩] ، وقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيَرَوْا أَعْمَالَهُم * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ ﴾[الزلزال : ٦ ـ ٨] . فاقتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب في الآخرة .

وتحقق أرباب البصائر أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة لأنفسهم وصدق المراقبة . فمن حاسب نفسه في الدنيا ، خف في القيامة حسابه ، وحسن منقلبه . ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته . فلما علموا أنهم لا ينجيهم إلا الطاعة وقد أمرهم الله تعالى بالصبر والمرابطة فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران : ٢٠٠] ، فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاتبة . فكانت لهم في المرابطة ست مقامات ، وأصلها المحاسبة ، ولكن كل حساب يكون بعد مشارطة ومراقبة ، ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة ، ولا بد من شرح ذلك المقام .

المقام الأول : المشارطة .

اعلم : أن التاجر كما يستعين بشريكه في التجارة طلباً للربح ، ويشارطه ويحاسبه ، كذلك العقل يحتاج الى مشاركة النفس ، ويوظف عليها الوظائف ، ويشرط عليها الشروط ، ويرشدها الى طريق الفلاح ، ثم لا يغفل عن مراقبتها ، فإنه لا يأمن خيانتها وتضييعها رأس المال ، ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها ، فإن هذه التجارة ربحها الفردوس الأعلى . فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم من تدقيقه بكثير من أرباح الدنيا . فحتم على كل ذي عزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها ، فإن كل

نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفسية لا عوض لها .

فإذا فرغ العبد من فريضة الصبح ، ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة نفسه فيقول للنفس : ما لي بضاعة إلا العمر ، فإذا فني مني رأس المال وقع اليأس من التجارة ، وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه ، وأخّر أجلي ، وأنعم عليَّ به . ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني الى الدنيا حتى أعمل فيه صالحاً ، فاحسبي يا نفس أنك قد توفيت ثم رددت ، فإياك أن تضيعي هذا اليوم ، واعلمي أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وأن العبد ينشر له بكل يوم أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتح له منها خزانة ، فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة ، فيحصل له من السرور بمشاهدة تلك الأنوار ما لو وزع على أهل النار لأدهشتهم عن الاحساس بألم النار ، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح ريحها ويغشاه ظلامها ، وهي الساعة التي عصى الله تعالى فيها ، فيحصل له من الفزع والخزي ما لو قسم على أهل الجنة لنغص عليهم نعيمهم ، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسوؤه ولا يسره ، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من المباح ، ويتحسر على خلوها ، ويناله ، ما نال القادر على الربح الكثير إذا أهمله حتى فاته ، وعلى هذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه : اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ، ولا تدعيها فارغة ، ولا تميلي الى الكسل والدعة والاستراحة ، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك .

قال بعضهم : هب أن المسيء قد عفي عنه ، أ'يس قد فاته ثواب المحسنين ؟ فهذه وصيته في نفسه في أوقاته . ثم يستأنف لها وصية أخرى في أعضائه السبعة ، وهي : العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل ، وتسليمها الى النفس ، فإنها رعايا خادمة لها في هذه التجارة المخلدة ، بها يتم أعمالها ، ويعلمها أن أبواب جهنم سبعة على عدد هذه الأعضاء . فتعيين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء ، فيوصيها بحفظها عن معاصيها .

أما العين فيحفظها عن النظر الى ما لا يحل النظر إليه ، أو الى مسلم بعين الاحتقار وعن كل فضول مستغنىً عنه ، ويشغلها بما فيه تجارتها وربحها ، وهو النظر الى ما خلقت له من عجائب صنع الله تعالى بعين الاعتبار ، والنظر الى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله تعالى ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومطالعة كتب الحكم للاتعاظ والاستفادة .

وهكذا ينبغي أن يتقدم الى كل عضو بالوصية بما يليق به، ولا سيما اللسان والبطن ، وقد ذكرنا آفات اللسان فيما تقدم ، فيشغله بما خلق له ، من الذكر والتذكير ، وتكرار العلم والتعليم ، وإرشاد عباد الله تعالى الى طريق الله ، وإصلاح ذات البين ، الى غير ذلك من الخير .

وأما البطن ، فيكلفه ترك الشره ، واجتناب الشبهات والشهوات ، ويقتصر على قدر الضرورة ، ويشترط على نفسه إن خالفت شيئاً من ذلك أن يعاقبها بالمنع من شهوات البطن ، ليفوتها أكثر مما نالت بشهوتها . وهكذا في جميع الأعضاء، واستقصاء ذلك يطول ، وكذلك ما تخفي طاعات الأعضاء ومعاصيها .

ثم يستأنف وصيتها في وظائف العبادات التي تتكرر في اليوم والليلة ، في النوافل التي يقدر عليها، وعلى الاستكثار منها. وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم الى أن تتعود النفس ذلك ، فيستغني عن المشارطة ، ولكن لا يخلو كل يوم من حادثة لها حكم جديد لله تعالى عليه في ذلك حق . ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا ، من ولاية أو تجارة أو نحو ذلك ، إذ قلَّ أن يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج الى أن يقضي حق الله فيها . فعليه أن يشرط على نفسه الاستقامة فيها ، والانقياد للحق .

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله [الأماني] »[1] .

وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيؤوا للعرض الأكبر ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُم خَافِيَةٌ ﴾[الحاقة : ١٨] .

المقام الثاني : المراقبة :

إذا أوصى الانسان نفسه ، وشرط عليها ما ذكرناه ، لم يبق إلا المراقبة لها وملاحظتها . وفي الحديث الصحيح في تفسير الإحسان ، لما سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، أراد بذلك استحضار عظمة الله ومراقبته في حال العبادة .

---

(١) ضعيف وقد تقدم .

قيل : دخل الشبلي على ابن أبي الحسين النوري[1] وهو قاعد ساكن ، لا يتحرك من ظاهره شيء ، فقال له : ممن أخذت هذه المراقبة والسكون ؟ فقال : من سنّور كانت لنا ، إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر حتى لا يتحرك لها شعرة .

وينبغي أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفي العمل ، هل حركه عليه هوى النفس أو المحرك له هو الله تعالى خاصة ؟ فإن كان الله تعالى ، أمضاه ، وإلا تركه ، وهذا هو الإخلاص .

قال الحسن : رحم الله عبداً وقف عند همه ، فان كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخر .

فهذه مراقبة العبد في الطاعة ،وهو أن يكون مخلصاً فيها ، ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع ، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب ، والشكر على النعم ، فإنه لا يخلو من نعمة لا بد له من الشكرعليها ،ولا يخلو من بلية لا بد من الصبر عليها ، وكل ذلك من المراقبة .

وقال وهب بن منبه في حكمة آل داود : حق على العاقل أن لا يشغل عن أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي فيها الى اخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ، ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ولا يحرم ، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات ، وإجمام للقوة . وهذه الساعة التي هو مشغول فيها بالمطعم والمشرب ، لا ينبغي أن تخلو عن عمل هو أفضل الأعمال ، وهو الذكر والفكر ، فإن الطعام الذي يتناوله ، فيه من العجائب ما لو تفكر فيه كان أفضل من كثير من أعمال الجوارح .

المقام الثالث : المحاسبة بعد العمل :

قال الله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ ، وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر : ١٨] وهذه إشارة الى المحاسبة بعد مضي العمل ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا .

وقال الحسن : المؤمن قوّام على نفسه ، يحاسب نفسه . وقال : إن المؤمن يفجؤه

---

(١) في النسخ المخطوطة « الثوري » وهو تصحيف .

الشيء يعجبه فيقول : والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي ، ولكن والله ما من حيلة إليك ، هيهات حيل بيني وبينك . ويفرط منه الشيء فيرجع الى نفسه فيقول : ما أردت الى هذا ، ما لي ولهذا ؟ والله لا أعود الى هذا أبداً إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلكتهم ، إن المؤمن أسير في الدنيا ، يسعى في فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه ، وفي بصره ، وفي لسانه ، وفي جوارحه ، مأخوذ عليه في ذلك كله .

واعلم : أن العبد كما ينبغي أن يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه ، كذلك ينبغي أن يكون له ساعة يطالب فيها نفسه في آخر النهار ، ويحاسبها على جميع ما كان منها ، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم .

ومعنى المحاسبة أن ينظر في رأس المال ، وفي الربح ، وفي الخسران لتتبين له الزيادة من النقصان ، فرأس المال في دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصي ، وليحاسبها أولاً على الفرائض ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها ومعاقبتها ليستوفي منها ما فرط .

قيل : كان توبة بن الصمة بالرقة ، وكان محاسبا لنفسه ، فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال : يا ويلتا ! ألقى الملك باحد وعشرين الف ذنب وخمسمائة ذنب ؟ ! كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب !! ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت ، فسمعوا قائلاً يقول : يا لها ركضة الى الفردوس الأعلى !

فهكذا ينبغي للعبد أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصية القلب والجوارح في كل ساعة ، فإن الإنسان لو رمى بكل معصية يفعلها حجراً في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة ، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي وهي مثبتة﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾ .

المقام الرابع : معاقبة النفس على تقصيرها :

اعلم : أن المريد إذا حاسب نفسه فرأى منها تقصيراً ، أو فعلت شيئاً من المعاصي فلا ينبغي أن يهملها ، فإنه يسهل عليه حينئذ مقارفة الذنوب ويعسر عليه فطامها ، بل ينبغي أن يعاقبها عقوبة مباحة كما يعاقب أهله وولده .

وكما روي عن عمر رضي الله عنه : أنه خرج الى حائط له ، ثم رجع وقد صلى

الناس العصر . فقال : إنما خرجت الى حائطي ، ورجعت وقد صلى الناس العصر ، حائطي صدقة على المساكين . قال الليث : إنما فاتته الجماعة ، وروينا عنه أنه شغله أمر عن المغرب حتى طلع نجملان ، فلما صلاها أعتق رقبتين .

وحكي أن تميم الداري رضي الله عنه نام ليلة لم يقم يتهجد فيها حتى أصبح ، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع .

ومرَّ حسان بن سنان بغرفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعنيك ! لأعاقبنك بصوم سنة ، فصامها .

فأما العقوبات بغير ذلك مما لا يحل ، فيحرم عليه فعله . مثال ذلك : ما حكي أن رجلاً من بني اسرائيل ، وضع يده على فخذ امرأة ، فوضعها في النار حتى شلت ، وأن آخر حوَّل رجله لينزل الى امرأة ، ففكر وقال : ماذا أردت أن أصنع ؟ فلما أراد أن يعيد رجله قال : هيهات رجل خرجت الى معصية الله لا ترجع معي . فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح ، وأن آخر نظر الى امرأة فقلع عينيه ، فهذا كله محرم ، وإنما كان جائزاً في شريعتهم . وقد سلك نحو ذلك خلق من أهل ملتنا ، حملهم على ذلك الجهل بالعلم ، كما حكي عن غزوان الزاهد : أنه نظر الى امرأة ، فلطم عينه حتى نفرت .

وروينا عن بعضهم : أنه أصابته جنابة وكان البرد شديداً ، وأنه وجد في نفسه توقفا عن الغسل ، فآلى ألا يغتسل إلا في مرقعته ، ألا ينزعها ولا يعصرها ، فكانت شديدة الكثافة تزيد على عشرين رطلاً . وهذا من الجهل بالعلم ، فإنه ليس للانسان أن يتصرف في نفسه بمثل هذا . وقد ذكرت كثيراً من هذا الفن الصادر عن المتعبدين على الجهل في كتابي المسمى بـ « تلبيس إبليس » .

المقام الخامس : المجاهدة :

وهو أنه إذا حاسب نفسه ، فينبغي إذا رآها قد قارفت معصيةً أن يعاقبها كما سبق ، فإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل ، أو ورد من الأوراد ، فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ، كما ورد عن ابن عمر رضي الله عنه أنه فاتته صلاة في جماعة ، فأحيا الليل كله تلك الليلة . وإذا لم تطاوعه نفسه على الأوراد ، فانه يجاهدها ويكرهها ما استطاع .

وقال ابن المبارك : إن الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً ، وإن

أنفسنا لا تواتينا إلا كرهاً .

ومما يستعان به عليها أن يسمعها أخبار المجتهدين ، وما ورد في فضلهم ، ويصحب من يقدر عليه منهم ، فيقتدي بأفعاله .

قال بعضهم : كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت الى وجه محمد بن واسع والى اجتهاده ؟ فعملت على ذلك أسبوعاً . وقد كان عامر بن عبد قيس يصلي كل يوم ألف ركعة . وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يخضرَّ ويصفرَّ ، وحج مسروق فما نام إلا ساجداً . وكان داود الطائي يشرب الفتيت مكان الخبز ، ويقرأ بينهما خمسين آية . وكان كرز بن وبرة يختم كل يوم ثلاث ختمات ، وكان عمر بن عبد العزيز ، وفتح الموصلي يبكيان الدم ، وصلى أربعون نفساً من القدماء الفجر بوضوء العتمة ، وجاور أبو محمد الحريري سنة فلم ينم ولم يتكلم ، ولم يستند الى حائط ، ولم يمد رجله ، فقال له أبو بكر الكتاني : بم قدرت على هذا ؟ قال : علم صدق باطني فأعانني على ظاهري . ودخلوا على زحلة العابدة فكلموها بالرفق بنفسها فقالت : إنما هي أيام مبادرة ، فمن فاته اليوم شيء لم يدركه غداً والله يا إخوتاه ! لأصلين لله ما أقلتني جوارحي ، ولأصومن له في أيام حياتي ، ولأبكين ما حملت الماء عيناي .

ومن أراد أن ينظر في سير القوم ، ويتفرج في بساتين مجاهداتهم ، فلينظر في كتابي المسمى بـ « صفة الصفوة » فإنه يرى من أخبار القوم ما يعد نفسه بالإضافة إليهم من الموتى ، بل من أخبار المتعبدات من النسوة ما يحنقر نفسه عند سماعه .

المقام السادس : في معاتبة النفس وتوبيخها

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : من مقت نفسه في ذات الله آمنه الله من مقته .

وقال أنس رضي الله عنه : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ودخل حائطاً فسمعته يقول وبيني وبينه جدار : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، بخ بخ ، والله لتتقين الله يا ابن الخطاب أو ليعذبنك .

وقال البختري بن حارثة : دخلت على عابد فإذا بين يديه نار قد أججها وهو يعاتب نفسه ، فلم يزل يعاتبها حتى مات .

وكان بعضهم يقول إذا ذكر الصالحون : فأف لي وتف .

واعلم : أن أعدى عدوٍ لك نفسك التي بين جنبيك ، وقد خُلقت أمّارة بالسوء ، ميّالة الى الشر ، وقد أمرت بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها ، وأن تقودها بسلاسل القهر الى عبادة ربها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ، ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لزمتها بالتوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة ، فلا تغفلن عن تذكيرها . وسبيلك أن تقبل عليها ، فتقرر عندها جهلها وغباوتها وتقول : يا نفس ، ما أعظم جهلك ، تدَّعين الذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً ، أما تعلمين أنك صائرة الى الجنة أو النار ؟ فكيف يلهو من لا يدري الى أيتهما يصير ؟ ! وربما اختطف في يومه أو في غده ! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن الموت يأتي بغتة من غير موعد ، ولا يتوقف على سن دون سن ، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، وإن لم يكن الموت فجأة كان المرض فجأة ، ثم يفضي الى الموت . فمالك لا تستعدين للموت وهو قريب منك ؟ ! يا نفس ، إن كانت جرأتك على معصية الله تعالى لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك ! وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك ، فما أشد رقاعتك ، وأقل حياءك ! ألك طاقة على عذابه ؟ جربي ذلك بالقعود ساعة في الحمام ، أو قربي أصبعك من النار . يا نفس ! إن كان المانع لك من الاستقامة حب الشهوات ، فاطلبي الشهوات الباقية الصافية عن الكدر ، ورب أكلة منعت أكلات .

وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء ثلاثة أيام ليصح ويتهيأ لشربه طول العمر ؟ ! فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر ؟ أم يقضي شهوته في الحال ثم يلزمه الألم أبداً ؟ فجميع عمرك بالاضافة الى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالاضافة الى جميع العمر ، بل أقل من لحظة بالاضافة الى عمر الدنيا . وليت شعري ! ألم الصبر عن الشهوات أشد وأطول ، أم النار في الدركات ؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة ، كيف يطيق ألم العذاب في الآخرة ؟ أشغلك حب الجاه ؟ أما بعد ستين سنة أو نحوها ، لا تبقين أنت ولا من كان لك عنده جاه . هلا تركت الدنيا لخسة شركائها ، وكثرة عنائها وخوفاً من سرعة فنائها ؟ أتستبدلين بجوار رب العالمين صف النعال في صحبة الحمقى ؟ قد ضاع أكثر البضاعة ، وقد بقيت من العمر صُبابة ، ولو استدركت ندمت على ما ضاع ، فكيف إذا أضفت الأخير الى الأول ؟ اعملي في أيام قصار لأيام طوال ، وأعدي الجواب للسؤال . اخرجي من الدنيا خروج الأحرار قبل أن يكون خروج اضطرار . إنه من كانت مطيته الليل والنهار سير به وإن لم يسر . تفكري في هذه

الموعظة ، فإن عدمت تأثيرها ، فابكي على ما أصبت به فمستقى الدمع من بحر الرحمة .

***

باب التفكر

قد أمر الله سبحانه بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز ، وأثنى على المتفكرين بقوله : ﴿ وَيَتفكَّرونَ في خَلْقِ السَّمَواتِ والأرض رَبَّنا ما خَلَقْتَ هَذَا بَاطلاً ﴾ [آل عمران : ١٩١] وقال : ﴿ إنَّ في ذَلكَ لآياتٍ لقَوْمٍ يَتفكَّرون ﴾ [الرعد : ٣] .

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله »[1] .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرىء قط إلا فهم ، وما فهم إلا علم ، وما علم إلا عمل .

وقال بشر الحافي : لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه .

وقال الفريابي في قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آياتي الَّذينَ يَتكبَّرُونَ في الأَرض بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٧] ، قال : أمنع قلوبهم من التفكر في أمري .

وكان داود الطائي على سطح في ليلة قمراء ، فتفكر في ملكوت السماوات والأرض ، فوقع في دار جار له ، فوثب عرياناً وبيده السيف ، فلما رآه قال : يا داود ، ما الذي ألقاك ؟ قال : ما شعرت بذلك .

وقال يوسف بن أسباط : إن الدنيا لم تخلق لينظر إليها ، بل لينظر بها الى الآخرة .

وكان سفيان من شدة تفكره يبول الدم .

وقال أبو بكر الكتاني : روعة عند انتباهة من غفلة ، وانقطاع عن حظ نفساني ، وارتعاد من خوف قطيعة ، أفضل من عبادة الثقلين .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » والبيهقي في « الشعب » وابن أبي الدنيا في « التفكير » ، وأبو الشيخ في « العظمة » وفي سنده الوازع بن نافع ، قال النسائي :متروك، وقد أورد الذهبي هذا الحديث من منكراته ، وانظر شرح الاحياء : ١٠/١٦٢ .

obeikandl.com

بيان مجاري الفكر وثمراته

واعلم : أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين ، وقد يجري في أمر يتعلق بغيره ، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين ، وشرح ذلك يطول . فلينظر الإنسان في أربعة أنواع : الطاعات ، والمعاصي ، والصفات المهلكات ، والصفات المنجيات . فلا تغفل عن نفسك ، ولا عن صفاتك المباعدة عن الله ، والمقربة اليه .

وينبغي لكل مريد أن تكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات ، وجملة الصفات المنجيات ، وجملة المعاصي والطاعات ،ويعرض ذلك على نفسه كل يوم .

ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة ، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها ، وهي : البخل ، والكبر ، والعجب، والرياء ، والحسد ، وشدةالغضب ، وشرهالطعام ،وشره الوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه .

ومن المنجيات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضى بالقضاء والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والزهد في الدنيا والإخلاص في الأعمال ، وحسن الخُلق مع الخَلْق ، وحب الله تعالى ، والخشوع .

فهذه عشرون خصلة : عشرة مذمومة ، وعشرة محمودة ، فمتى كفي من المذمومات واحدة خط عليها في جريدته ، وترك الفكر فيها ، وشكر الله تعالى على كفايته إياها . وليعلم أن ذلك لم يتم الا بتوفيق الله تعالى وعونه ، ثم يقبل على التسعة الباقية ، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع . وكذلك يطالب نفسه بالأتصاف بالصفات المنجيات ، فإذا اتصف بواحدة منها ، كالتوبة والندم مثلاً ، خط عليها واشتغل بالباقي ، وهذا يحتاج إليه المريد المشمّر .

فأما أكثر الناس من المعدودين في الصالحين ، فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة ، كأكل الشبهات ، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة ، والمراء ، والثناء على النفس ، والإفراط في موالاة الأولياء ، ومعاداة الأعداء ،والمداهنة في ترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه ، وما لم تطهر الجوارح من الآثام ، لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره .

وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من هذه الأمور ، فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكيرهم فيها . مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو في غالب الأمر من إظهار نفسه بالعلم ، وطلب الشهرة ، وانتشار الصيت ، إما بالتدريس ، أو بالوعظ . ومن فعل ذلك ، فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون . وربما ينتهي العلم بأهل العلم الى أن يتغايروا كما يتغاير النساء ، وكل ذلك من رسوخ الصفات المهلكات في سر القلب التي يظن العالم النجاة منها ، وهو مغرور فيها .

ومن أحس من نفسه هذه الصفات ، فالواجب عليه الانفراد والعزلة ، وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى ، فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى ، وكل منهم يود لو أن أخاه كفاه . وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس ، فإنهم قد يقولون : هذا سبب لاندراس العلم ، فليقل لهم : دين الإسلام مستغن عني ، ولو مت لم ينهدم الإسلام ، وأنا غير مستغن عن إصلاح قلبي ، فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه ، نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يرضاه عنا .

فصل [في أن التفكر في ذات الله ممنوع منه]

قد تقدم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله » فالتفكر في ذاته سبحانه ممنوع منه ، وذلك أن العقول تتحيّر في ذلك ، فإنه أعظم من أن تمثله العقول بالتفكر ، أو تتوهمه القلوب بالتصوير : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

فأما التفكر في مخلوقات الله تعالى ، فقد ورد القرآن بالحث على ذلك كقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ . . . الآيات [آل عمران : ١٩٠] . وقوله ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس : ١٠١] .

ومن آيات الله تعالى الانسان المخلوق من نطفة ، فيتفكر الإنسان في نفسه ، فإن في خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ، ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشره وهو غافل عن ذلك . وقد أمره الله تعالى بالتدبر في نفسه ، فقال : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١] . وقد تقدم في كتاب الشكر الكلام على

بعض خلق الإنسان فليطلب هناك .

ومن آياته الجواهر المودعة في الجبال ، والمعادن من الذهب والفضة والفيروزج ونحوها ، وكذلك النفط والكبريت والقار وغيرها . ومن آياته البحار العظيمة العميقة المكتنفة لأقطار الأرض ، التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض . ولو جمع المكشوف من الأرض ، من البراري ، والجبال ، لكان بالإضافة الى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم ، وفي البحر عجائب أضعاف ما نشاهده في البر .

وانظر كيف خلق اللؤلؤ ، ودوَّره في صدفة تحت الماء ، وانظر كيف أنبت المرجان في صم الصخور تحت الماء ، وكذلك ما عداه من العنبر وأصناف ما يقذفه البحر،وانظر الى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء ، وسيرها في البحار تسوقها الرياح وأعجب من ذلك الماء ، فإنه حياة كل ما على الأرض من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد الى شربة ماء ، ومنع منها لبذل جميع خزائن الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك ، ثم إذا شربها ومنع خروجها ، لبذل جميع خزائن الأرض في إخراجها ، فلا يغفل العبد عن هذه النعمة .

ومن آياته الهواء وهو جسم لطيف لا يرى بالعين ، ثم انظر الى شدته وقوته ، وانظر الى عجائب الجو ، وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والمطر والثلج والبرد والشهب والصواعق ، وغير ذلك من العجائب . وانظر الى الطير تسبح بأجنحتها بالهواء كما يسبح حيوان البحر في الماء ، ثم انظر الى السماء وعظمها وكواكبها وشمسها وقمرها ، وما فيها كوكب إلا ولله فيه حكمة في لونه وشكله ومرضعه ، وانظر إلى إيلاج الليل في النهار ، والنهار في الليل ، وانظر مسير الشمس ، كيف اختلف في الصيف والشتاء والربيع والخريف .

وقد قيل : إن الشمس مثل الأرض مائة ونيفاً وستين مرة ، وإن أصغر كوكب في السماء مثل الأرض ثمان مرات ، فإذا كان هذا قدر كوكب واحد ، فانظر الى كثرة الكواكب ، والى السماء التي فيها الكواكب ، والى إحاطة عينك بذلك مع صغرها ، والعجب منك أنك تدخل بيت غني مزخرف مموه بالذهب ، فلا ينقطع تعجبك منه ، ولا تزال تذكره وأنت تنظر الى هذا البيت العظيم ، والى أرضه وسقفه وعجائبه وأمتعته وبدائع نقوشه،ثم لا تلتفت الى نحوه بقلبك ، ولا تتفكر في بناء خالقك ، فلقد نسيت نفسك وربك ، واشتغلت ببطنك وفرجك ، فما مثلك في غفلتك إلا كمثل نملة تخرج

من بيتها الذي حفرته في حائط قصر الملك ، فتلقى أختها فتتحدث معها في حديث بيتها ، وكيف بنته وما جمعت فيه ، ولا تذكر قصر الملك ولا من فيه . فهكذا أنت في غفلتك ، فما تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك .

فهذا بيان معاقد الجمل التي يجول فيها فكر المتفكرين ، والأعمار تقصر ، والعلوم تقل عن الإحاطة ببعض المخلوقات ، إلا أنك كلما استكثرت من معرفة عجائب المصنوعات ، كانت معرفتك بجلال الصانع أتم . فتفكر فيما أشرنا اليه ها هنا مع ما قدمناه من الإشارة في كتاب الشكر . فمن نظر في هذه الأشياء من حيث إنها فعل الله وصنعه ، استفاد المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته ، ومن قصر النظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض ، لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب ، شقي . نعوذ بالله من مزلة أقدام الجهال ، ومن الركون الى أسباب الضلال ، ولا وجه للتفكر فيما لا نراه من الملائكة والجن ، فلذلك عدلنا عنه إلى ما نراه والله أعلم .

***

باب في ذكر الموت وما بعده وما يتعلق به

اعلم : أن المنهمك في الدنيا المكب في غرورها ، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره ، وإن ذكره كرهه ونفر منه ، ثم الناس إما منهمك ، أو تائب مبتدىء ، أو عارف منتبه .

فأما المنهمك فلا يذكره ، وإن ذكره فيذكره لتأسف على دنياه ، ويشتغل بذمه ، وهذا لا يزيده ذكر الموت من الله تعالى إلا بعداً .

وأما التائب ، فإنه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية ، فيفي بتمام التوبة ، وربما يكره الموت خيفة أن يختطفه قبل تمامها أو قبل إصلاح الزاد ، وهو معذور في كراهة الموت . ولا يدخل بهذا تحت قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » فإنه إنما يخاف لقاء الله لقصوره وتقصيره ، فهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه ،فلا يعد كارهاً للقائه ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له ، لا شغل له سواه ، وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا .

وأما العارف ، فإنه يذكر الموت دائماً ، لأنه موعد لقاء الحبيب ، وهو لا ينسى

موعد لقاء حبيبه . وهذا في غالب الأمر يستبطىء مجيء الموت ، ويحبه ليتخلص من دار العاصين ، وينتقل الى جوار رب العالمين ، كما قال بعضهم : حبيب جاء على فاقة .

فإذن التائب معذور في كراهة الموت ، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه ، وأعلى منهما من فوض امره الى الله تعالى ، فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة ، بل تكون الأشياء اليه أحبها الى مولاه ، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء الى مقام التسليم والرضى ، وهو الغاية والمنتهى .

وعلى كل حال ، ففي ذكر الموت ثواب وفضل ، فإن المنهمك في الدنيا قد يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا ، لأن ذكره ينغص عليه نعيمه ويكدره .

باب ما جاء في فضل ذكر الموت

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أكثروا ذكر هاذم اللذات : الموت » .

وعن أنس رضي الله عنه : أن رجلاً ذكر عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأحسنوا عليه الثناء ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « كيف كان ذكر صاحبكم للموت ؟ » قالوا : ما كنا نسمعه يذكر الموت . قال : « فإن صاحبكم ليس هناك »[1] .

وعن ابن عمر رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل : أي المؤمنين أكيس ، قال : أكثرهم للموت ذكراً وأشدهم استعداداً له أولئك هم الأكياس »[2] .

وقال الحسن البصري : فضح الموت الدنيا ، فلم يترك لذي لب فيها فرحاً ، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت الدنيا عليه ، وهان عليه جميع ما فيها .

وكان ابن عمر رضي الله إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير ، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء ، فيتذاكرون الموت والقيامة ثم يبكون ، حتى كأن بين أيديهم جنازة .

---

(١) نسبه العراقي في « تخريج الإحياء » إلى ابن أبي الدنيا في « الموت » باسناد ضعيف .

(٢) ضعيف أخرجه ابن ماجة (٤٢٥٩) من حديث ابن عمر ، وفي سنده مجهولان .

وكان حامد القيصري يقول : كلنا قد أيقن الموت ، وما نرى له مستعداً ، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً ، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً ، فعلام تفرحون ؟ ! وما عسيتم تنتظرون ؟ ! الموت ، فهو أول وارد عليكم من أمر الله بخير ، أو بشر ، فيا إخوتاه ! سيروا الى ربكم سيراً جميلاً .

.وقال شميط بن عجلان : من جعل الموت نصب عينيه ، لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها .

واعلم : أن خطر الموت عظيم ، وإنما غفل الناس عنه لقلة فكرهم وذكرهم له ، ومن يذكره منهم إنما يذكره بقلب غافل ، فلهذا لا ينجع فيه ذكر الموت ، والطريق في ذلك أن يفرغ العبد قلبه لذكر الموت الذي هو بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر الى مفازة مخطرة ، أو يركب البحر ، فإنه لا يتفكر إلا في ذلك . وأنفع طريق في ذلك ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله ، فيذكر موتهم ومصارعهم تحت الثرى .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : السعيد من وعظ بغيره . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكر الموتى ، فعد نفسك كأحدهم .

وينبغي أن يكثر دخول المقابر ، ومتى سكنت نفسه الى شيء في الدنيا ، فليتفكر في الحال أنه لا بد من مفارقته ، ويقصر أمله .

وقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمنكبي فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك .

وفي حديث آخر : « إن أخوف ما أخاف على أمتي : الهوى وطول الأمل ، فأما الهوى فيضل عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة »[1] .

وعن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه : « أكلكم يحب أن يدخل الجنة ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله ؟ قال : « قصروا الأمل ، وأثبتوا آجالكم بين أبصاركم ، واستحيوا من الله عز وجل حق حيائه[2] » .

---

(١) أخرجه ابن عدي والحاكم عن جابر وسنده ضعيف ، وانظر شرح الإحياء ١٠/ ٢٣٧ .

(٢) ضعيف رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » عن الحسن مرسلا .

وعن أبي زكريا التيمي قال : بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام ، إذ أتي بحجر منقوش ، فطلب من يقرأه ، فإذا فيه : ابن آدم ! لو رأيت قرب ما بقي من جلك لزهدت في طول أملك ، ولرغبت في الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك وحشمك ، فبان منك الولد والنسب ، فلا أنت الى دنياك عائد ، ولا في حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة .

واعلم : أن السبب في طول الأمل شيئان :

أحدهما : حب الدنيا ، والثاني : الجهل .

أما حب الدنيا فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ، ثقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه ، والإنسان مشغول بالأماني الباطلة ، فيمني نفسه أبداً بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا ، وما يحتاج اليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر ، فيلهو عن ذكر الموت ، ولا يقدر قربه . فإن خطر له الموت في بعض الأحوال والحاجة الى الاستعداد له ، سوَّف بذلك ووعد نفسه ، وقال : الأيام بين يديك الى أن تكبر ثم تتوب . وإذا كبر قال : الى أن يصير شيخاً ، وإن صار شيخاً ، قال : الى أن يفرغ من بناء هذه الدار ، وعمارة هذه الضيعة ، أو يرجع من هذه السفرة . فلا يزال يسوف ويؤخر ، ولا يحرص في اتمام شغل إلا ويتعلق باتمام ذلك الشغل عشرة أشغال ، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم ، ويشتغل بشغل بعد شغل ، الى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه ، فتطول عند ذلك حسرته .

وأكثر صياح أهل النار من « سوف » يقولون : واحسرتاه ! من « سوف » . وأصل هذه الأماني كلها ، حبُّ الدنيا والأنس بها ، والغفلة عن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أحبب ما شئت فإنك مفارقه » .

السبب الثاني : الجهل ، وهو أن الإنسان يعول على شبابه ، ويستبعد قرب الموت مع الشباب ، أو ليس يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا كانوا أقل من العشر ؟ وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر ، والى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبي وشاب ، وقد يغتر بصحته ، ولا يدري أن الموت يأتي فجأة ، وإن استبعد ذلك ، فإن

المرض يأتي فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً ، ولو تفكر وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص ، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار ، ولا هو مقيد بسن مخصوص ، من شاب وشيخ أو كهل أوغيره،لعظم ذلك عنده واستعد للموت .

فصل [في تفاوت الناس في طول الأمل]

والناس متفاوتون في طول الأمل تفاوتاً كثيراً ، منهم من يأمل البقاء إلى زمان الهرم ، ومنهم من لا ينقطع أمله بحال ، ومنهم من هو قصير الأمل ، فروي عن أبي عثمان النهدي أنه قال : بلغت ثلاثين ومائة سنة ، وما من شيء إلا قد عرفت فيه النقصان إلا أملي فإنه كما هو .

وحكي في قصر الأمل أن امرأة حبيب أبي محمد قالت : كان يقول لي - يعني أبا محمد - إن مت اليوم فأرسلي الى فلان يغسلني ويفعل كذا وكذا ، واصنعي كذا وكذا ، فقيل لها : أري رؤيا ؟ قالت : هكذا يقول كل يوم .

وعن إبراهيم بن سبط قال : قال لي أبو زرعة : لأقولن لك قولاً ما قلته لأحد سواك : ما خرجت من المسجد منذ عشرين سنة ، فحدثتني نفسي أن أرجع إليه . وقيل لبعضهم : ألا تغسل قميصك ؟ قال : الأمر أعجل من ذلك .

وعن محمد بن أبي توبة قال : أقام معروف الصلاة ثم قال لي : تقدم ، فقلت : إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها ، فقال معروف : أنت تحدث نفسك أنك تصلي صلاة أخرى ؟ نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل .

فهذه أحوال الزهاد في قصر الأمل ، وكلما قصر الأمل ، جاد العمل ، لأنه يقدر أن يموت اليوم ، فيستعد استعداد ميت ، فإذا أمسى شكر الله تعالى على السلامة ، وقدر أنه يموت تلك الليلة فيبادر الى العمل .

وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة اليه ففي « صحيح البخاري » عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس ، الصحة والفراغ » .

وعنه : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل وهو يعظه : « اغتنم

خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

وقال عمر رضي الله عنه : التؤدة في كل شيء خير ، إلا ما كان من أمر الآخرة .

وكان الحسن يقول : عجباً لقوم أمروا بالزاد ، ونودي فيهم بالرحيل ، وحبس أولهم على آخرهم ، وهم قعود يلعبون .

وقال سحيم مولى بني تميم : جلست الى عبد الله بن عبد الله ، فأوجز في صلاته ، ثم أقبل عليَّ وقال : أرحني بحاجتك ، فإني أبادر . فقلت : وما تبادر؟ قال : ملك الموت . وكان يصلي كل يوم ألف ركعة .

وكانوا يبادرون بالأعمال غاية ما يمكن ، فكان ابن عمر يقوم في الليل فيتوضأ ويصلي ، ثم يغفي إغفاء الطير ، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ، ثم يغفي إغفاء الطير ، ثم يقوم يصلي ، يفعل ذلك مراراً . وكان عمير بن هانىء يسبح كل يوم مائه ألف تسبيحة ، وقال أبو بكر بن عياش : ختمت القرآن في هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة .

فصل في ذكر شدة الموت وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم : أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ، ولا هول سوى الموت ، لكان جديراً أن يتنغص عليه عيشه ، ويتكدر عليه سروره ، وتطول فيه فكرته . والعجب أن الانسان لو كان في أعظم اللذات ، فانتظر أن يدخل عليه جندي يضربه خمس ضربات ، لكدرت عليه عيشه ولذته ، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع ، وهو غافل عن ذكر ذلك ، وليس لهذا سبب إلا الجهل والغرور .

اعلم : أن الموت أشد من ضرب السيف ، وإنما يصيح المضروب ، ويستغيث لبقاء قوته ، وأما الميت عند موته ، فإنه ينقطع صوته من شدة ألمه ، لأن الكرب قد بالغ فيه ، وغلب على قلبه وعلى كل موضع منه ، وضعفت كل جارحة فيه ، فلم يبق فيه قوة لاستغاثة ، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة . وتجذب الروح من جميع العروق ، ويموت كل عضو من أعضائه تدريجاً ، فتبرد أولاً قدماه ، ثم ساقاه ، ثم فخذاه ، حتى تبلغ الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره الى الدنيا وأهلها ، ويغلق دونه باب

التوبة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله يقبل التوبة من العبد ما لم يغرغر » .

وقد روي أن الملكين الموكلين بالعبد يتراءيان له عند الموت ، فإن كان صالحاً أثنيا عليه ، وقالا : جزاك الله خيراً ، وإن كان صحبهما بشر ، قالا : لا جزاك الله خيراً[1] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله عز وجل وكل بعبده المؤمن ملكين يكتبان عمله ، فإذا مات قالا : قد مات ، أتأذن لنا أن نصعد الى السماء ؟ قال : فيقول الله تعالى : إن سمائي مملوءة من ملائكتي يسبحوني . فيقولان : فتأذن لنا فنقيم في الأرض ؟ فيقول الله تعالى : إن أرضي مملوءة من خلقي ، يسبحوني . فيقولان : فأين نقيم ؟ فيقول : قوما على قبر عبدي ، فسبّحاني واحمداني وكبراني وهللاني ، واكتبا ذلك لعبدي الى يوم القيامة » .

وفي « الصحيحين » من حديث عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، فليس شيء أحبَّ إليه مما أمامه ، وأما صاحب النار الذي ختم له بسوء فهو يبشر بها وهو في تلك الأهوال » .

وقد كان كثير من السلف يخافون سوء الخاتمة ، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الخوف ، وهو لائق بهذا المكان ، نسأل الله أن يرحمنا برحمته التي وسعت كل شيء ، وأن يلطف بنا ، وأن يختم لنا بخير إنه جواد كريم .

وأما ما يستحب من الأحوال عند المحتضر ، فأن يكون قلبه يحسن الظن بالله تعالى ، ولسانه ينطق بالشهادة ، والسكون من علامات اللطف ، وهو أمارة على أنه قد رأى الخير ، وقد روي أن روح المؤمن تخرج رشحاً . ويستحب تلقينه : لا إله إلا الله ،كما جاء في الحديث الصحيح من رواية مسلم : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله » .

وينبغي للملقن أن يرفق به ، ولا يلح عليه . وقد جاء في حديث آخر : « احضروا موتاكم ، ولقنوهم لا إله إلا الله ، وبشروهم بالجنة ، فإن الحليم العليم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصرع ، وإن ابليس عدو الله أقرب ما يكون من العبد في ذلك الموطن »[2] . وذكر الحديث الى آخره .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا عن وهيب بن الورد بلاغاً .

(٢) ضعيف أخرجه أبو نعيم في « الحلية » .

وفي الحديث الصحيح : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » .

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل على رجل وهو يموت فقال : « كيف تجدك ؟ » قال : أرجو الله وأخاف ذنوبي . فقال : « ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو ، وأمّنه من الذي يخاف » .

والرجاء عند الموت أفضل ، لأن الخوف سوط يساق به ، وعند الموت يقف البصر ، فينبغي أن يتلطف به ، ولأن الشيطان يأتي حينئذ بسخط العبد على الله فيما يجري عليه ، ويخوفه فيما بين يديه ، فحسن الظن أقوى سلاح يدفع به العدو .

وقال سليمان التيمي لابنه عند الموت : يا بني ! حدثني بالرخص ، لعلي ألقى الله تعالى وأنا أحسن الظن به .

باب ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم

اعلم : أن في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسوة حسنة في كل أحواله ، ومعلوم أنه ليس في المخلوقين أحد أحب الى الله تعالى منه ، ولم يؤخره الله تعالى حين انقضى أجله .

وقد لقي صلى الله عليه وآله وسلم من الموت شدة ، فروى البخاري في « صحيحه » من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ركوة أو علبة فيه ماء ، فجعل يدخل يده في الماء ، فيمسح بها وجهه ويقول : « لا إله إلا الله ، إن للموت لسكرات » .

وفي « صحيح البخاري » من حديث أنس رضي الله عنه قال : لما ثقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمة رضي الله عنها : واكرب أبتاه ! فقال لها : « ليس على أبيك كرب بعد اليوم » .

وروى ابن مسعود قال : اجتمعنا في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها ، فنظر إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدمعت عيناه ، فنعى إلينا نفسه وقال : مرحباً ، حياكم الله بالسلام ، حفظكم الله ، رعاكم الله ، جمعكم الله ، نصركم الله ، وفقكم

الله ، نفعكم الله ، رفعكم الله ، سلمكم الله ، أوصيكم بتقوى الله ، وأوصي الله بكم ، وأستخلفه عليكم » . قلنا : يا رسول الله : متى أجلك ؟ قال : « قد دنا الأجل ، والمنقلب الى الله ، والى سدرة المنتهى وجنة المأوى ، والفردوس الأعلى » . قلنا : يارسول الله ! ففيم نكفنك ؟ قال : « في ثيابي هذه إن شئتم ، أو يمنية ، أو بياض » . فقلنا : يا رسول الله ! من يصلي عليك ؟ وبكينا ، فقال : « مهلاً ، رحمكم الله ، وجزاكم عن نبيكم خيراً ، إذا غسلتموني وكفنتموني ، فضعوني على سريري هذا على شفير قبري ، ثم اخرجوا عني ساعة ، فإن أول من يصلي عليَّ خليلي وحبيبي جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت ، ثم ملائكة كثيرة ، ثم ادخلوا عليَّ فوجاً فوجاً ، فصلوا عليَّ وسلموا تسليماً ، ولا تؤذوني بتزكية ، ولا برنة ، ولا بصيحة ، وليبدأ بالصلاة عليَّ رجال أهل بيتي ، ثم نساؤهم ، ثم أنتم بعد ، وأقرؤوا السلام على من غاب عني من أصحابي ، وعلى من تابعني على ديني الى يوم القيامة ، ألا واني أشهدكم أني قد سلمت على كل من دخل في الإسلام »[1] .

ولقد دخل عليه جبريل قبل موته بثلاثة أيام فقال : يا محمد ؟ إن الله أرسلني اليك يسألك عما هو أعلم به منك ، يقول : كيف تجدك ؟ فقال : « أجدني يا جبريل مغموماً ، وأجدني مكروباً » ثم أتاه في اليوم الثاني ، فأعاد الكلام ، وأعاد عليه الجواب ، ثم جاءه في اليوم الثالث وأعاد عليه الكلام ، فأعاد عليه الجواب ، فإذا ملك الموت يستأذن ، فقال جبريل : يا أحمد ! هذا ملك الموت يستأذن عليك ، ولم يستأذن على آدمي قبلك ، ولا يستأذن على آدمي بعدك ، فقال : « ائذن له » ، فدخل ، فوقف بين يديه وقال : إن الله أرسلني إليك : وأمرني أن أطيعك ، فإن أمرتني أن أقبض نفسك قبضتها ، وإن أمرتني أن أتركها تركتها ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « وتفعل يا ملك الموت ؟ » قال : كذلك أمرت أن أطيعك . فقال جبريل : يا أحمد ! إن الله قد اشتاق إليك . فقال : « فامض لما أمرت به يا ملك الموت » ، فقال جبريل عليه السلام : السلام عليك يا رسول الله ، هذا آخر موطني في الأرض إنما كنت حاجتي من الدنيا[2] .

فتوفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مستنداً الى صدر عائشة رضي الله عنها في

---

(١) حديث ضعيف جداً رواه ابن سعد في « الطبقات » والطبراني في « الدعاء » والواحدي في « التفسير » بسند واه جداً . انظر « شرح الإحياء » ١٠/ ٢٩٠ ، ٢٩١ .

(٢) أخرجه الطبراني من حديث الحسين بن علي وفي سنده عبد الله بن ميمون القداح ، قال أبو حاتم : متروك ، وقال البخاري : ذاهب الحديث ، وقال ابن حبان : لا يجوز أن يحتج بما انفرد به .

كساء ملبّد ، وإزار غليظ ، وقامت فاطمة رضي الله عنها تندب وتقول : يا أبتاه ! أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه ! جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه ! الى جبريل ننعاه ، يا أبتاه ! من ربه ما أدناه ، فلما دفن قالت : يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ! .

وقال أبو بكر رضي الله عنه :

لما رأيت نبينا متجدلا ... ضاقت عليَّ بعرضهن الدور
وارتعت روعة مستهام والهٍ ... والعظم مني واهن مكسور
أعتيق ويحك إن حبّكَ قد ثوى ... وبقيت منفرداً وأنت حسير
يا ليتني من قبل مَهْلك صاحبي ... غُيِّبتُ في جدَثٍ عليَّ صخور

وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

روى أبو المليح أن أبا بكر رضي الله عنه لما حضرته الوفاة أرسل الى عمر رضي الله عنه فقال : إني أوصيك بوصية ، إن أنت قبلت عني : إن لله عز وجل حقاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وإن لله حقاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه في الآخرة باتباعهم الحق في الدنيا ، وثقلت ذلك عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه في الآخرة باتباعهم الباطل ، وخفته عليهم في الدنيا ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً .

ألم تر أن الله أنزل آية الرجاء عند آية الشدة ، وآية الشدة عند آية الرجاء ، ليكون العبد راغباً راهباً لا يلقي بيديه الى التهلكة ، ولا يتمنى على الله غير الحق . فإن أنت حفظت وصيتي هذه ، فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت ،ولا بد لك منه ، وإن أنت ضيعت وصيتي هذه فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت ، ولا بد لك منه ولست تعجزه .

وقيل : لما احتضر جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

لَعمْـرُك ما يُغنـي الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر[1]

فكشف عن وجهه وقال : ليس كذلك ، ولكن قولي : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلك مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[ق : ١٩] . انظروا ثوبيَّ هذين ، فاغسلوهما وكفنوني فيهما ، فإن الحي أحوج الى الجديد من الميت .

وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وعن ابن عمر قال : كان رأس عمر في حجري بعد ما طعن ، وكان مرضه الذي توفي فيه ، فقال : ضع خدي على الأرض ، فقلت : وما عليك إن كان في حجري أم على الأرض ؟ وظننت أن ذلك تبرم به ، فلم أفعل ، فقال : ضع خدي على الأرض لا أم لك ، ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي .

وروي أنه لما طعن وحمل الى بيته ، وجاء الناس يثنون عليه ، جاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله لك ، صحبة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقدم في الاسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة ، فقال : وودت أن ذلك كان كفافاً ، لا لي ولا عليَّ ، ثم قال : يا عبد الله بن عمر ، انطلق الى عائشة أم المؤمنين، فقل: عمر يقرأ عليك السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن عند صاحبيه . فمضى وسلم واستأذن عليها ، ثم دخل فوجدها قاعدة تبكي ، فقال : عمر يقرأ عليك السلام ، ويستأذن أن يدفن عند صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسي ، ولأوثرنه اليوم على نفسي . فلما أقبل ، قيل : هذا عبد الله بن عمر قد جاء ، قال : ارفعوني ، فأسنده رجل اليه ، فقال : ما وراءك ؟ قال : الذي تحب يا أمير المؤمنين ، أذنت . قال : الحمد لله ، ما كان شيء أحب إلي من ذلك ، فإذا أنا مت فاحملوني ،ثم سلم ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فان أذنت ، فأدخلوني ، وإن ردتني ، فردوني الى مقابر المسلمين .

وفي أفراد مسلم من حديث المسور بن مخرمة ، أن عمر قال : والله لو أن لي طلاع[2]

---

(١) الحشرجة : الغرغرة عند الموت وتردد النفس ، والفاعل محذوف ، أي : الروح : ولم يذكر لدلالة الكلام عليه ، ومنه قوله تعالى ﴿ وبلغت الحلقوم﴾ أي . بلغت الروح الحلقوم .

(٢) طلاع الشيء : ملؤه . قال أوس بن حجر يصف قوساً :

كتوم طلاع الكف لا دون ملئها ولا عجسها عن موضع الكف أفضلا

الأرض ذهباً ، لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه .

وفي خبر آخر : والله لو أن لي ما طلعت عليه الشمس أو غربت ، لافتديت به من هول المطلع .

وفاة عثمان بن عفان رضي الله عنه

عن نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان رضي الله عنه ، قالت : لما كان اليوم الذي قتل فيه عثمان ، ظل في اليوم الذي قبله صائماً ، فلما كان عند إفطاره ، سألهم الماء العذب فلم يعطوه ، فنام ولم يفطر ، فلما كان وقت السحر أتيتُ جاراتٍ لي على أجاجير متصلة ، فسألتهم الماء العذب ، فأعطوني كوزاً من ماء ، فأتيته فحركته فاستيقظ ، فقلت : هذا ماء عذب ، فرفع رأسه فنظر الى الفجر ، فقال : إني قد أصبحت صائماً ، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اطلع عليَّ من هذا السقف ومعه ماء عذب ، فقال : « اشرب يا عثمان » ! فشربت حتى رويت ، ثم قال : « ازدد » ، فشربت حتى نهلت ، ثم قال : « إنِ القوم سينكرون عليك ، فإن قاتلتهم ظفرت ، وإن تركتهم أفطرت عندنا » . قالت : فدخلوا عليه من يومه فقتلوه .

وعن العلاء بن الفضيل ، عن أبيه ، قال : لما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه فتشوا خزانته ، فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً ففتحوه ، فوجدوا فيه حقة فيها ورقة مكتوب فيها : هذه وصية عثمان ، بسم الله الرحمن الرحيم ، عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن الله يبعث من في القبور ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد ، عليها نحيا ، وعليها نموت ، وعليها نبعث إن شاء الله تعالى .

وفاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

عن الشعبي ، قال : لما ضرب عليٌّ رضي الله عنه تلك الضربة ، قال : ما فعل بضاربي؟ قالوا : أخذناه، قال : أطعموه من طعامي، واسقوه من شرابي، فإن أنا عشت رأيت فيه رأيي ، وإن أنا مت فاضربوه ضربة واحدة لا تزيدوه عليها ، ثم أوصى الحسن أن يغسله وقال : لا تغالي في الكفن ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

يقول : « لا تغالوا في الكفن فإنه يسلب سلباً سريعاً » ، امشوا بي المشيتين لا تسرعوا بي ، ولا تبطئوا ، فإن كان خيراً عجلتموني إليه ، وإن كان شراً ألقيتموني عن أكتافكم .

وروي أنه لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي رضي الله عنه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل ، فعاد الثانية وهو كذلك ، ثم عاد الثالثة فقام يمشي وهو يقول :

اشدد حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيك [1]

ولا تجزع من الموت ... وإن حل بناديك

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه عبد الرحمن بن ملجم فضربه .

ذكر كلمات نقلت عن جماعة عند موتهم من الصحابة وغيرهم

وذكر زيارة القبور ونحو ذلك

لما نزل الموت بالحسن بن علي رضي الله عنهما قال : أخرجوا فراشي الى صحن الدار ، فأخرج فقال : اللهم إني أحتسب نفسي عندك ، فإني لم أصب بمثلها .

وقد ذكرنا ما تقدم من كلام الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم .

وروي أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قال : انظروا هل أصبحنا ؟ فأتي فقيل : لم تصبح ، حتى أتي في بعض ذلك ، فقيل له : لقد أصبحنا ، فقال : أعوذ بالله من ليلة صباحها الى النار ، ثم قال : مرحباً بالموت زائر مغيب ، وحبيب جاء على فاقة ، اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الأنهار[2] ولا لغرس الأشجار ، ولكن لطول ظمأ الهواجر ، وقيام ليل الشتاء ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر .

وقال أبو مسلم : جئت أبا الدرداء وهو يجود بنفسه ويقول : ألا رجل يعمل لمثل

---

(١) قال المبرد في « الكامل » ص ٩٢٣ بعد إنشاده : والشعر إنما يصح بأن تحذف « اشدد » فتقول :

حيازيمك للموت ... فإن الموت لاقيك

ولكن الفصحاء من العرب يزيدون ما يملبه المعنى ، ولا يعتدون به في الوزن . والحيزوم : ما اشتمل عليه الصدر ، وجمعه حيازيم ، ويقال للرجل : اشدد حيازيمك لهذا الأمر ، أي : وطن نفسك عليه .

(٢) كريت النهر : حفرته .

مصرعي هذا ؟ ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا ؟ ألا رجل يعمل لمثل ساعتي هذه ؟ ثم قبض رحمه الله .

وبكى سلمان الفارسي عند موته، فقيل له : ما يبكيك؟ فقال: عهد الينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون زاد أحدنا كزاد الراكب ، وحولي هذه الأزواد . وقيل : إنما كان حوله إجانة وجفنة ومطهرة .

وروى المزني قال : دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه ، فقلت له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلا ، وللاخوان مفارقاً ، ولسوء عملي ملاقياً ، ولكأس المنية شارباً ، وعلى الله وارداً ، ولا أدري أروحي تصير الى الجنة فأهنئها ، أم الى النار فأعزيها ، ثم أنشأ يقول :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني بعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفُوك أعظما
وما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منة وتكرما

قيل : كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقعد الى القبور ، فقيل له في ذلك ، فقال : أجلس الى قوم يذكّروني معادي ، وإن غبت لم يغتابوني .

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز الى المقبرة ، فلما نظر الى القبور بكى ، ثم أقبل عليَّ فقال : يا ميمون ، هذه قبور آبائي بني أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلاث ، واستحكم فيهم البلاء ، وأصاب الهوام مقيلاً في أبدانهم ؟ ثم بكى وقال : والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار الى هذه القبور ، وقد أمن من عذاب الله تعالى .

وتُستحب زيارة القبور ، فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة » ومن زار قبراً فليستقبل وجه الميت ، وليقرأ شيئاً من القرآن ويهديه له ، ولتكن الزيارة يوم الجمعة .

وقد روي أنه لما مات عاصم الجحدري رآه رجل من أهله في المنام بعد موته بسنتين فقال له : ألست قد مُتَّ ؟ قال : بلى . قال : وأين أنت ؟ قال عاصم : أنا والله في روضة من رياض الجنة ، أنا ونفر من أصحابي ، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها الى أبي بكر بن عبد الله المزني نتلاقى أخباركم ، قال : قلت له : أجامكم أم

أرواحكم ؟ قال : هيهات ! بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح . قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال : نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ، ويوم السبت الى طلوع الشمس . قلت : وكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لشرف يوم الجمعة وعظمه .

وحكى عثمان بن سواد الطفاوي وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها : راهبة ، قال : لما احتضرت رفعت رأسها الى السماء وقالت : يا ذخري ويا ذخيرتي ومن عليه اعتمادي في حياتي وبعد مماتي ، لا تخذلني عند الموت ، ولا توحشني في قبري . قال : فماتت ، فكنت آتيها كل جمعة وأدعو لها ، وأستغفر لها ولأهل القبور ، فرأيتها ليلة في منامي فقلت لها : يا أماه ! كيف أنت ؟ قالت : يا بني ! إن الموت لكرب شديد ، وأنا بحمد الله في برزخ محمود ، يفترش فيه الريحان ، ويتوسد فيه السندس والاستبرق الى يوم النشور . فقلت : ألك حاجة ؟ قالت : نعم ، لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا فإني لأسر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك ، فيقال لي : يا راهبة ! هذا ابنك قد أقبل ، فأسر ويسر بذلك من حولي من الأموات .

وعن أنس بن منصور قال : كان رجل يختلف الى الجنائز فيشهد الصلاة عليها ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال : آنس الله وحشتكم ، ورحم غربتكم ، وتجاوز عن سيئاتكم ، وقبل حسناتكم ، لا يزيد على هؤلاء الكلمات ، قال ذلك الرجل : فأمسيت ذات ليلة ، ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، فبينا أنا نائم إذا أنا بخلق كثير قد جاؤوني فقلت : من أنتم ؟ وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر ، إنك كنت عودتنا منك هدية . فقلت : وما هي ؟ قالوا : الدعوات التي كنت تدعو بها . قلت : فإني أعود لذلك ، فما تركتها بعد .

وقال بشار بن غالب : رأيت رابعة في منامي ، وكنت كثير الدعاء لها ، فقالت لي : يا بشار ! هداياك تأتينا على أطباق من نور ، مخمرة بمناديل الحرير . قلت : وكيف ذلك ؟ قالت : هكذا دعاء الأحياء إذا دعوا للموتى واستجيب لهم ، جعل ذلك الدعاء على أطباق النور ، وخمر بمناديل الحرير ، ثم أتي به الى الذي دعي له من الموتى ، فقيل له : هذه هدية فلان إليك .

فصل [في حقيقة الموت]

والذي تدل عليه الآيات والأخبار أن حقيقة الموت ، هو مفارقة الروح للجسد ، وأن الروح تكون بعد ذلك باقية ، إما معذبة أو منعمة ، فإن الروح قد تتألم بنفسها بأنواع الحزن والغم ، وتتنعم بأنواع الفرح والسرور من غير تعلق لها بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها ، يبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وكل ما هو لها بواسطة الأعضاء يتعطل بموت الجسد الى أن تعاد الروح الى الجسد . ولا يبعد أن تعاد الروح الى الجسد في القبر ، ولا يبعد أن تؤخر الى يوم البعث ، والله سبحانه أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده .

فمعنى الموت انقطاع تصرف الروح عن البدن ، وخروج البدن عن أن يكون آلة لها ، وسلب الإنسان عن أمواله وأهله بإزعاجه الى عالم آخر لا يناسب هذا العالم . فإن كان له بالدنيا شيء يفرح به ، ويستريح اليه ، عظمت حسرته عليه بعد الموت ، وإن كان لا يفرح إلا بذكر الله تعالى والأنس به ، عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خلي بينه وبين محبوبه ، وقطعت عنه العوائق والشواغل ، لأن جميع شواغل الدنيا شاغلة عن ذكر الله تعالى .

وينكشف للميت بالموت ما لم يكن مكشوفاً في حال الحياة ، كما ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له عند النوم ، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا . وأول ما ينكشف له ما يضره وما ينفعه من حسناته وسيئاته ، وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوي في سر قلبه ، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا ، فلما انقطعت انكشفت له جميع أعماله ، فلا ينظر الى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وكل ذلك ينكشف له عند الموت ، وهذه آلام تهجم على العاصي قبل الدفن ، نسأل الله العافية .

ومما يدل على أن الروح لا تنعدم بالموت ، قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] . قال مسروق : سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية فقال : أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي الى تلك القناديل ، وذكر تمام الحديث . وجاء في قوله تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَونَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦] . أخبر أنهم

يعذبون بعد الموت .

وفي « الصحيحين » عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن أحدكم إذا مات ، عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله اليه يوم القيامة » .

وقد تقدم أن الإنسان إذا انكشفت له سيئاته تحسر لها وتألم تألماً عظيماً ، فأما المؤمن ، فقال عبد الله بن عمر : مثل المؤمن حين تخرج نفسه مثل رجل كان في سجن فأخرج منه ، فهو يتفسح في الأرض ، ويتقلب فيها . وهو صحيح ، فإن المؤمن ينكشف عليه عقيب الموت من فضل الله وكرامته ما تكون الدنيا بالإضافة اليه كالسجن ، فيكون كمحبوس في بيت مظلم فتح له باب الى بستان واسع الأكناف ، فيه أنواع الأشجار ، فلا يسره الرجوع الى الدنيا كما لا يسره العود الى بطن أمه .

وقال مجاهد : إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعد لتقر بذلك عينه .

فصل في ذكر القبر

روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار »[1] .

وروي أيضاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « يقول القبر للميت حين يوضع فيه : ويحك يا ابن آدم ! ما غرك ؟ ! ألم تعلم أني بيت الظلمة ، وبيت الوحدة ، وبيت الدود ؟ »[2] .

وروى الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مصلاّه ، فرأى ناساً كأنهم يكثرون ، فقال : « أما إنكم لو أكثرتم من ذكر هاذم اللذات لشغلكم عما أرى ، فأكثروا ذكر هاذم اللذات الموت ، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا يتكلم فيقول : أنا بيت الغربة ، أنا بيت الوحدة ، أنا بيت التراب ، أنا بيت الدود . فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحباً وأهلاً ، أما إن كنت لأحب من يمشي على ظهري إليَّ ، فإذ وليتك اليوم وصرت إليَّ ، فسترى صنيعي بك ، فيتسع له مد بصره ، ويفتح له باب الى الجنة ، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر : لا

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » من حديث أبي هريرة وفي سنده محمد بن أيوب بن سويد الرملي وهو ضعيف .

(٢) أخرجه أبو يعلى والطبراني في « الكبير » ، وفي سنده أبو بكر بن أبي مريم ، وهو ضعيف كان قد سرق بيته فاختلط .

مرحبا ولا أهلا ، أما إن كنت لأبغض من يمشي على ظهري إليَّ ، فاذا وليتك اليوم ، وصرت إليَّ ، فسترى صنيعي بك ، قال : فيلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأصابعه ، فأدخل بعضها في بعض قال : « ويقيض له سبعون تنيناً ، لو أن واحداً منها نفخ في الأرض ما أنبتت شيئاً ما بقيت الدنيا ، فينهشنه ويخدشنه ، حتى يقضى به الى الحساب ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار »[1] .

وقال كعب : إذا وضع الرجل الصالح في قبره ، احتوشته أعماله الصالحة : الصلاة ، والصيام ، والحج ، والجهاد ، والصدقة . وقال : وتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة : إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه ، فقد أطال بي القيام لله عز وجل ، قال : فيأتونه من قبل رأسه ، فيقول الصيام : لا سبيل لكم عليه فقد أطال بي الصيام . قال : فيأتونه من قبل جسده ، فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه ، فقد أنصب نفسه ، وأتعب بدنه ، وحج وجاهد لله عز وجل ، لا سبيل لكم عليه . فيأتونه من قبل يديه ، فتقول الصدقة : كم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وضعت في يد الله ابتغاء وجهه ، فلا سبيل لكم عليه . قال : فيقال له : هنيئاً طبت حياً ، وطبت ميتاً . قال : وتأتيه ملائكة الرحمة ، فتفرشه فراشاً في الجنة ودثاراً من الجنة ، فيفسح له في قوة مد بصره ، ويؤتى بقنديل من الجنة يستضيء بنوره الى يوم يبعثه الله من قبره .

وعن أنس بن مالك أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله . فيقولان : انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله عز وجل به مقعداً في الجنة . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : فيراهما جميعاً . وأما الفاجر أو المنافق فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له : لا دريت ولا تليت ، ثم يضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » أخرجاه في « الصحيحين » .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٢) وفي سنده عبيد الله الوصافي وهو ضعيف وكذا شيخه فيه وهو عطية العوفي لكن قوله « أكثروا ذكر هاذم اللذات الموت » صحيح بشواهده .

وفيهما من حديث أسماء بنت أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « أوحي إليَّ أنكم تفتنون في قبوركم مثل ـ أو قال قريباً من ـ فتنة المسيح الدجال ، يقال : ماعلمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله . . . » وذكر باقي الحديث .

وعن ابن عباس قال : لما أخرجت جنازة سعد بن معاذ وسوينا عليها ، التفت إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « ما من أحد من الناس إلا وله ضغطة في قبره ، ولو كان منفلتاً منها أحد لانفلت سعد بن معاذ » . وذكر باقي الحديث .

وعن عبد الله الصنعاني قال : رأيت يزيد بن هارون في المنام بعد موته بأربع ليال ، فقلت : ما فعل الله بك؟ قال : تقبل مني الحسنات ، وتجاوز عني السيئات . قلت : وما كان بعد ذلك ؟ قال : وهل يكون من الكريم إلا الكرم ، غفر لي ذنوبي وأدخلني الجنة ، قلت : بم نلت الذي نلت ؟ قال : بمجالس الذكر ، وقولي الحق ، وصدقي في الحديث ، وطول قيامي في الصلاة ، وصبري على الفقر ، قلت : منكر ونكير حق ؟ قال : اي والله الذي لا إله إلا هو ، لقد أقعداني وسألاني : من ربك ؟ وما دينك ، ومن نبيك ؟ فجعلت أنفض لحيتي البيضاء من التراب ، وقلت : مثلي يسأل ؟ ! أنا يزيد بن هارون الواسطي ، كنت في دار الدنيا ستين سنة أعلم الناس ؟ فقال أحدهما : صدق ، هو يزيد بن هارون ، نم نومة العروس ، فلا روعة عليك بعد اليوم .

وقال المروزي : رأيت أحمد بن حنبل في النوم في روضة ، وعليه حلتان خضروان ، وعلى رأسه تاج من النور ، وإذا هو يمشي مشية لم أكن أعرفها له ، فقلت : يا أحمد ! ما هذه المشية التي لم أكن أعهدها لك ؟ فقال : هذه مشية الخدام في دار السلام . فقلت : وما هذا التاج الذي أراه على رأسك ؟ فقال : إن ربي عز وجل أوقفني وحاسبني حساباً يسيراً ، وكساني وحباني وقربني ، وأنا أنظر إليه ، وتوجني بهذا التاج وقال لي : يا أحمد ! هذا تاج الوقار توجتك به ، كما قلت : القرآن كلامي غير مخلوق .

فصل في أحوال الميت من وقت نفخة الصور

الى حين الاستقرار في الجنة او النار

قد أشرنا الى أهوال القبر ، وأشد من ذلك نفخ الصور والبعث والحساب ونصب

الميزان والصراط ، وهذه أهوال يجب الإيمان بها ، وينبغي تطويل الفكر فيها ، وجمهور الناس لم يتمكن من قلوبهم الإيمان بالآخرة ، ولو أن الإنسان لم يشاهد توالد الحيوانات ، ثم قيل له : إن صانعاً يصنع من هذه النطفة القذرة مثل هذا الآدمي المتصور العاقل المتكلم ، لاشتد نفور طبعه عن التصديق بذلك ، فخلقه على ما فيه من الأعاجيب ، يزيد على بعثه وإعادته . وكيف ينكر ذلك ـ من قدرة الله تعالى وحكمته ـ من يشاهد البداية ؟ فإن كان في إيمانك ضعف ، فقو الإيمان بالنظر في النشأة الأولى ، فإن الثانية مثلها وأسهل منها ، وإن كنت قوي الإيمان بها ، فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار ، وأكثر فيها التفكر والاعتبار ، وليحثك ذلك على الجد والتشمير . وأول ما يقرع أسماع الموتى صوت إسرافيل حين ينفخ ذلك في الصور . فصور نفسك وقد قمت ذاهلاً مبهوتاً شاخصاً نحو النداء . قال الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِم يَنسِلُونَ ﴾ [يس : ٥١] .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كيف أنعم وصاحب الصور قد حنى جبهته ، وأصغى بسمعه ، ينتظر أن يؤمر أن ينفخ في الصور فينفخ ؟ ! » قال المسلمون : كيف نقول يا رسول الله ؟ قال : «قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وتوكلنا على الله » . ثم انظر كيف يحشر الناس يوم القيامة ، فيساقون بعد البعث حفاةً عراةً الى أرض المحشر ، وهي قاع ليس فيها ربوة يختفي الانسان بفنائها .

وفي « الصحيحين » قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي » .

ثم تفكر في ازدحام الناس ، وقرب الشمس من رؤوسهم ، وشدة العرق ، مع ما في القلوب من القلق .

وفي الحديث : « إن العرق يأخذ الناس على قدر أعمالهم » .

وتفكر يا مسكين في سؤال ربك لك عن أعمالك بغير واسطة ، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : فأما عرضتان ، فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطاير الصحف ، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله » .

وعن أبي برزة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا

تزول قدما عبد حتى يسأل : عن عمره فيما أفناه ، وعن عمله فيما عمل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فما أبلاه » .

وعن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر رضي الله عنه ، إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في النجوى يوم القيامة ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إن الله عز وجل يدني المؤمن ، فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فاني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم : قال : ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكفار والمنافقون ، فيقول الأشهاد :﴿ هَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِم أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[هود : ١٨] أخرجاه في « الصحيحين » .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « يضرب جسر على جهنم فأكون أول من يجوز ؟ » .

وفيهما أيضاً ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم ، قالوا : يا رسول الله ! ما الجسر ؟ قال : مدحضة مزلة ، عليها خطاطيف وكلاليب وحسك ، يمر المؤمنون عليه كالطرف ، وكالبرق الخاطف ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ، فناج مسلم ، وناج مخدوش ، حتى يمر آخرهم يسحب سحباً » .

ذكر جهنم أعاذنا الله منها[1]

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً ، فسمعنا وجبة ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « أتدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفاً ، فالآن انتهى الى قعرها » رواه مسلم .

وفي « الصحيحين » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ،

---

(١) اقرأ كتاب « التخويف من النار وحال أهل البوار » للحافظ ابن رجب الحنبلي منشورات مكتبة دار البيان بدمشق .

قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله ، قال : فانها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً ، كلُّها مثل حرها » .

وفي افراد مسلم ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : يلقى على أهل النار الجوع ، فيعدل عندهم ما فيه من العذاب ، فيستغيثون بالطعام ، فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة ، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصة بالشراب ، فيستغيثون بالشراب،فيغاثون بالحميم ، ينالونه بكلاليب من حديد ، فإذا دنا منهم شوى وجوههم ، وإذا دخل بطونهم قطع ما في بطونهم ، فيطلبون الى خزنة جهنم : أن ﴿ ادْعُوا رَبَّكُم يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمَاً منْ العَذَابِ﴾ فيجيبونهم : ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إلاَّ في ضَلاَلٍ﴾ [غافر : ٤٩] فيقولون : سلوا مالكاً ، فيقولون : ﴿ يَا مَالِكُ ! لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ﴾ فيقول : ﴿ إنكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف : ٧٧] فيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فيقول عز وجل : ﴿ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تكلِّمُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٧ ـ ١٠٨] . فعند ذلك ييأسون من كل خير ، ويأخذون في الشهيق والويل والثبور .

وتفكر في حيَّاتها وعقاربها ، ففي الحديث : « إن حيَّاتها أمثال أعناق البخت ، وعقاربها كالبغال الموكفة » .

وعن الحسن : أن النار تأكلهم كل يوم سبعين ألف مرة ثم يعودون كما كانوا .

واعلم : أن صفة جهنم تطول ، وأيسر اليسير من ذلك ينبغي أن يكفي في التخويف ، فإن كنت مؤمناً بهذا فانتبه لنفسك ، وخف ما بين يديك ، فإن الله لا يجمع على عبد خوفين ، ولسنا نعني بالخوف رقة النساء فتبكي ساعة ثم تترك العمل ، وإنما نريد خوفاً يمنع عن المعاصي ، ويحث على الطاعة . فأما خوف الحمقى الذين اقتصروا على سماع الأهوال ، وأن يقولوا : استعنا بالله ، نعوذ بالله ، يا رب سلم ، وهم مع ذلك مصرون على القبائح ، والشيطان يسخر بهم كما يسخر ممن قصده سبع ضارٍ وهو الى جانب حصن ، فيقول : أعوذ بالله من هذا ، وهو لا يدخل الحصن ولا يبرح مكانه .

فصل [في محبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم]

وكن في الدنيا محباً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حريصاً على تعظيم سنته ، لعله يشفع فيك في الآخرة ، فإن له شفاعة يتقدم فيها على الأنبياء كلهم ، ويسأل اللهَ في أهل الكبائر من أمته فينجيهم . واستكثر من الإخوان الصالحين ، فلكل مؤمن شفاعة ، ولا تحملنك الغرة على التواني وتسمي ذلك رجاءً ، فإن من رجا شيئاً طلبه ، واحترز من المظالم ، فإن من كانت عليه مظالم ومات قبل ردها ، فإن غرماءه يحيطون به في القيامة ، فهذا يقول : ظلمني ، وهذا يقول : استهزأ بي ، وهذا يقول : أساء جواري ، وهذا يقول : غشني ، فلا خلاص لك من أيديهم . فإذا توهمت الخلاص قيل : لا ظلم اليوم .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يخلص المؤمنون يوم القيامة من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أتدرون ما المفلس » ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، قال : « إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لتؤدُنَ الحقوق الى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » .

وهذه الأحاديث كلها في الصحاح . فانظر وفقك الله الى بُعْد سلامة حسناتك لدخول ما يبطلها من الرياء والغيبة ، فإن سلمت أخذها الخصوم ، فتيقظ لنفسك ، ولا تفرط في أوقاتك ، فإن المسكين من آثر لذة متقطعة ، واشترى بها عذاباً شديداً دائماً . نسأل الله السلامة والتوفيق .

ذكر صفة الجنة
نسأل الله العظيم من فضله

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ! حدثنا عن الجنة ، ما بناؤها ؟ قال : « لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وملاطها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا يبأس ، ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه » .

وفي حديث أسامة بن زيد ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال يوماً وذكر الجنة : « ألا مشمر لها ؟ هي ورب الكعبة ريحانة تهتز ، ونور يتلألأ ، ونهر مطرد ، وزوجة لا تموت ، في حبور ونعيم ، ومقام في أبد » ، فقالوا : نحن المشمِّرون لها يا رسول الله ، قال : « قولوا : إن شاء الله »[1] .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : « إن الله عز وجل قال : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وفيهما أيضاً من حديثه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون ، أمشاطهم الذهب ، وريحهم المسك ، ومجامرهم الألوَّة الألنجوج[2] ، أزواجهم الحور العين ، على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعاً في السماء » . وفي رواية أخرى : « لكل واحد منهم زوجتان ، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشياً » .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣٣٢) وابن حبان (٢٦٤٠) وفي سنده الضحاك المعافري لم يوثقه غير ابن حبان ، وسليمان بن موسى في حديثه بعض لين ، وخلط قبل موته بقليل .

(٢) الألوة : هو العود الذي يتبخر به ، وتفتح همزته وتضم ، والألنجوج : عود يتبخر به أيضاً .

القوم وبين أن ينظروا الى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » . أخرجاه في « الصحيحين » .

وفيهما من حديث أبي موسى أيضاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن في الجنة لخيمة من درة مجوفة ، عرضها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن » .

واعلم : أن الله تعالى ذكر نعيم الجنة مبسوطاً في مواضع القرآن ، ثم جمعه في آيات . منها قوله تعالى : ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾[الزخرف : ٧١] ، وقوله : ﴿لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾[الكهف : ١٠٨] ثم زاد على ذلك بقوله : ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة : ١٧] .

صفات الجنة كثيرة اقتصرنا منها على هذا .

وأفضل ما ينال في الجنة رؤية الله تعالى . وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قيل : يا رسول الله ! هل نرى ربنا ؟ فقال : « فهل تضامون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ » قالوا : لا ، قال : « فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك » .

باب في ذكر سعة رحمة الله تعالى

نختم الكتاب بذكر سعة رحمة الله عز وجل ، نرجو بذلك فضله ، إذ ليس لنا أعمال نرجو بها العفو ، لكن نرجو ذلك من رحمته وكرمه . قال الله تعالى : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِم لاَ تَقْنَطُوا من رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر : ٥٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لما قضى الله عز وجل الخلق ، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي » أخرجاه في « الصحيحين » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن للّه عز وجل مائة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة بين الانس والجن والهوام والبهائم ، فبها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على أولادها . وأخرَّ تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة » .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن ربكم تبارك وتعالى رحيم ، من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر

حسنات الى سبعمائة ضعف ، ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة أو يمحوها الله ، ولا يهلك على الله تعالى إلا هالك » .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يقول الله عز وجل : من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد ، ومن عمل سيئة ، فجزاء سيئة مثلها أو أغفر ، ومن اقترب إليَّ شبراً اقتربت اليه ذراعاً ، ومن اقترب إليَّ ذراعاً اقتربت إليه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن رجلاً أذنب ذنباً فقال : أي رب ! أذنبت ذنباً فاغفر لي ، فقال تبارك وتعالى : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي . ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنباً آخر فقال : أي رب ! عملت ذنباً فاغفره لي ، فقال عز وجل : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي . ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنباً آخر فقال : أي رب ! عملت ذنباً فاغفره لي ، فقال : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي ، فليعمل ما شاء » . هذه الأحاديث كلها صحاح .

وفي «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسبي ، وإذا امرأة من السبي تسعى ، إذ وجدت صبياً في السبي فأخذته ، فألصقته ببطنها ، فأرضعته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أترون هذا المرأة طارحة ولدها في النار ؟ » قلنا : لا والله . قال : « لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها » .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي ذر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « ما من عبد قال : لا إله إلا الله ، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة » . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : « وإن زنى وإن سرق ، وان زنى وان سرق ! وان زنى وان سرق » ثم قال في الرابعة : « على رغم أنف أبي ذر » .

وفيهما من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إن الله حرم النار على من قال : لا إله إلا الله ، يبتغي بذلك وجه الله » .

وفيهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أنه قال : « يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير وزن برة ، ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرَّة » .

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا كان يوم القيامة لم يبق مؤمن إلا أتي بيهودي أو نصراني حتى يدفع إليه فيقال له : هذا فكاكك من النار » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل منها مد البصر،ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ قال : لا يا رب ، فيقول : ألك عذر أو حسنة ؟ فيبهت الرجل ، فيقول : لا يا رب فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة واحدة ، لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فيقول احضروه ، فيقول : ما هذه البطاقة مع هذه السجلات،فيقال : إنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة . قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، ولا يثقل شيء مع اسم الله عز وجل » .

ونظر الفضيل بن عياض الى تسبيح الناس وبكائهم يوم عرفة فقال : أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا الى رجل يسألونه دانقاً[1] ، أكان يردهم ؟ فقيل : لا ، فقال : والله المغفرة عند الله عز وجل أهون من إجابة رجل لهم بدانق ! .

وعن إبراهيم بن أدهم قال : خلا لي الطواف في ليلة مظلمة شديدة المطر ، فلم أزل أطوف الى السحر ، ثم رفعت يدي الى السماء . فقلت : اللهم إني أسألك أن تعصمني عن جميع ما تكره . فإذا قائل يقول في الهواء : أنت تسألني العصمة ، وكل خلقي يسألني العصمة ، فإذا عصمتك فعلى من أتفضل ؟

فهذه الأحاديث مع ما ذكرناه في كتاب الرجاء ، تبشرنا بكرم الله تعالى وسعة رحمته وجوده . ونحن نرجو من الله سبحانه أن لا يعاملنا بما نستحقه ، وأن يتفضل علينا بما هو أهله . ونحن نستغفر الله عز وجل من أقوالنا التي تخالف أعمالنا ، ومن كل تصنع تزيّنا به للناس ، وكل علم وعمل قصدناه ، ثم خالطه ما يكدره ، فبكرمه نستشفع الى كرمه ، وبجوده نسأل من جوده ، إنه قريب مجيب .

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، وكما ينبغي لكريم وجهه عز وجل .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

---

(١) الدانق : سدس الدرهم .